

الصَّوم الكبير

مع

شرح صلوات أسبوع الآلام

تأليف
الأب الكسندر شميمن

تعريب
الأب ابراهيم سرّوج

المنشورات الأرثوذكسيّة
دار الكلمة

الطبعة الثالثة
١٩٩٩

الصوم الكبير

مع
شرح صلوات أسبوع الآلام

تأليف

الأب الكسندر شميمن

المنشورات الأرثوذكسية دار الكلمة

تعريب

الأب ابراهيم سرّوج

الطبعة الثانية
١٩٨٦

كلمة المعرب

كان لسيادة راعينا الجليل ، المطران الياس قربان،منذ تسلّمه مهام ابرشية طرابلس والكورة وتوابعها ، اهتمامات عظيمة في ميدان التعليم الديني ونشر الفكر الارثوذوكسي . كما كان له الفضل الكبير ان تظهر في عهده اولى المبادرات الفكرية في الكنيسة الأنطاكية من انشاء مكتب للتعليم الديني واصدار نشرة اسبوعية وجريدة شهرية ليوزّعا مجاناً على جميع ابناء الأبرشية . بالاضافة الى اصدار كراريس لاهوتية عرّبها سيادته بنفسه وهي : الصوم الاربعيني ، سرّ المعمودية وسرّ الزواج .

هذا ونراه الآن ينشيء ، بالمساهمة مع غبطة البطريرك وبعض السادة المطارنة ، مكتباً مهمته نشر الكتب الدينية والتربوية والثقافية . وكتاب « الصوم الكبير » الذي تجدونه بين ايديكم هو باكورة أعماله .

ان مؤلف الكتاب هو الأب الكسندر شميمن عميد معهد القديس فلاديمير في نيويورك واستاذ التاريخ الكنسي واللاهوت الطقسي . وهو من ابرز المفكرين الارثوذكس في اوروبا وأميركا . له مؤلفات عديدة بالروسية والانكليزية والفرنسية . وهذا اوّل كتاب له ينقل الى العربية .

الأب شميمن عضوّ في الكنيسة الارثوذكسية الروسية في اميركا.ولذا فهو عندما يتحدث عن الطقوس ، يصف طقوس كنيسته الروسية التي قد تختلف احياناً عن طقوس كنيستنا الانطاكية . ومن جهة اخرى هو يكتب لأبناء كنيسته في اميركا ولأبناء المجتمع الاميركي . ولذا هو يأخذ بعين الاعتبار قضايا المجتمع الاميركي وطريقة الحياة الاميركية وينتقدها .

وبالنهاية اننا نشكر سيادته الذي كلفنا بتعريب هذا الكتاب . كما نشكر قدس الارشمندريت رومانوس جوهر والأخ شفيق حيدر اللذين راجعا النص العربي وصححاه . نرجو ان نكون قد وفقنا في النقل الى العربية . واننا لشاكرون سلفاً كل من يتقدم الينا بأي نقد او توجيه .

وليسدد الله خطانا في كل عمل صالح .

الأب ابراهيم سرّوج

طرابلس في بدء الصوم الاربعيني المقدس

١٣ آذار ١٩٧٨

المقدمة

كتب هذا الشرح المختصر للصوم الكبير لجميع الذين يرغبون – وهم كثر اليوم – فهما افضل لتقليد الكنيسة الليتورجي ومشاركة اعمق في حياتها .

يذكرنا الكتاب المقدس ان التوبة هي بداية الحياة المسيحية الحقة وشرطها الاساسي، وان كلمة المسيح الاولى عندما بدا كرازته كانت « توبوا » (متى ٤ : ١٧) .

ولكن ما هي التوبة ؟

اننا في زحمة حياتنا اليومية لا وقت لدينا لنفكر بالتوبة ، ونفترض ببساطة ان كل ما علينا ان نعمله اثناء الصوم هو الامتناع عن بعض الاطعمة ، تخفيف «التسلية» ، الاعتراف وان يحلنا الكاهن ونتناول (مرة في السنة) . وبعدها نعتبر اننا قمنا بجميع واجباتنا حتى السنة القادمة . ولكن الكنيسة ، لامر مهم ، وضعت سبعة اسابيع كوقت مخصص للتوبة والجهاد الروحي . كل هذا يجب ان يعنيني ويعني ايماني وحياتي وعضويتي في الكنيسة .

اذا اليس واجبي الاول ان احاول فهم تعليم كنيستي عن الصيام، ان اسعى لأكون مسيحيا ارثوذكسيا في الحياة وليس بالاسم فقط ؟

ان الصوم الكبير يجيبنا على الاسئلة :

ما هي التوبة ؟ وما حاجتنا لها ؟ وكيف نمارسها ؟

انه بالحقيقة مدرسة للتوبة على كل مسيحي ان يقصدها كل سنة ليعمق ايمانه، ليعيد تقييم حياته ، وان امكن ان يغيرها . انه حجّ حسن الى ينابيع الايمان الارثوذكسي واكتشاف جديد لطريقة الحياة الارثوذكسية .

تعطينا الكنيسة ، من خلال طقوسها الصيامية وروح الصوم ، معنى هذه الفترة الفريدة . وهذا الشرح المختصر للصوم يعتمد اساسا وليس كليا على خدم الصوم . ورجائي ان يكتشف القارئ بنفسه ان لا شيء في العالم اجمل واعمق واكثر وحيا وايحاء مما تقدمه لنا امنا الكنيسة المقدسة في هذه الفترة المباركة فترة الصوم الاربعيني المقدس .

مدخل

الصيام : الرحلة الى الفصح

عندما يقوم الانسان برحلة ما ، عليه ان يعرف اين يذهب . وهكذا في الصوم . فالصوم هو قبل كل شيء رحلة روحية . غايتها الاخيرة ألفصح « عيد الاعياد وموسم المواسم » . انه التهيئة « لاكتمال الفصح ، الكشف الحقيقي » . علينا ان نبدأ اذن بأن نحاول فهم هذاالارتباط بين الصوم والفصح لانه يكشف لنا شيئاً مهماً واساسياً جداً عن ايماننا وعن حياتنا المسيحية .

من الضروري جداً ان نشرح ان الفصح هو اكثر من عيد عادي ، واكثر من تذكار سنوي لحدث مضى . واي انسان اشترك – ولو لمرة واحدة – في صلوات ذلك الليل « الذي هو اكثر لماناً من النهار » وذاق من ذاك الفرح الفريد ، يعرف هذا . ولكن ماذا يعني هذا الفرح ؟ ولماذا باستطاعتنا ان ننشد كما نفعل اثناء خدمه الفصح « اليوم النور يملأ كل شيء ، السماء والارض وكل ما تحت الثرى » ؟ وبأي معنى نعيّد ، كما نقول ، « لموت الموت وانعدام الجحيم وبداية الحياة الجديدة والابدية .. » ؟ جواب هذه الاسئلة كلها هو ان تلك الحياة الجديدة التي بزغت من القبر منذ ما يقارب الالفي سنة قد اعطيت الآن لنا ، اي لجميع الذين يؤمنون بالمسيح . قد اعطيت لنا في يوم معموديتنا التي بها ، كما يقول بولس الرسول « دفنّا مع المسيح .. » (رومية ٦ : ٤) . وهكذا نحن نعيّد لقيامة السيد كأمر حدث وما زال يحدث لنا ، اذ ان كل واحد منا قد

قبل نعمة هذه الحياة الجديدة والقدرة لاقتبالها والعيش بموجبها . انها هبة تغيّر جذرياً موقفنا من كل شيء في هذا العالم حتى الموت . وتجعلنا قادرين ان نؤكد بفرح « اندحار الموت » ، ولكن من المؤكد ان الموت باق وما زلنا نواجهه ويوماً ما سيأخذنا . ولكن ايماننا يعلّمنا ان المسيح بموته غيّر طبيعة الموت نفسها وجعله فصحاً ، أي ممرّاً وعبوراً لمملكة الله محوّلاً مأساة المآسي الى نصر عظيم . « ووطىء الموت بالموت » ، وجعلنا مشاركين قيامته . ولذا نرنم في نهاية سحرية الفصح « لقد قام المسيح والحياة تسود . المسيح قام ولا يبقى احد في القبر » .

هذا هو ايمان الكنيسة الذي وضحه واكّده قديسوها العديدون . ولكن نادراً ما نعيش هذا الايمان في حياتنا اليومية ، وكثيراً ما نخون هذه « **الحياة الجديدة** » التي اخذناها كهبة ، ونعيش كأنّ المسيح لم يقم من بين الاموات وكأن هذا الحدث الفريد لا معنى له البتة . هذا حاصل كله بسبب ضعفنا ، بسبب استحالة العيش دائماً بـ « الايمان والرجاء والمحبة » على المستوى الذي رفعنا المسيح اليه عندما قال « اطلبوا اولاً ملكوت الله وبرّه » . اننا ننسى كل هذا بسبب انهماكنا وانغماسنا في اهتماماتنا اليومية . وبما اننا ننسى نفشل . وفي النسيان والفشل والخطيئة تصبح حياتنا « قديمة » مرة ثانية ، تافهة ومظلمة وبالنهاية بلا معنى . تصبح رحلة بلا معنى الى نهاية بلا معنى . اننا نجتهد ان ننسى حتى الموت ولكنه فجأة في وسط « استمتاعنا بالحياة » يأتي الينا تافهاً ، مرهباً لا مفر منه . من الممكن اننا من وقت لآخر نعترف « بخطايانا » المتعددة ، ولكن من دون ان نقيس حياتنا بمقياس الحياة الجديدة التي كشفها يسوع لنا واعطانا اياها . اننا نعيش بالواقع وكأن يسوع لم يأت مطلقاً . وهذه هي الخطيئة الحقيقية الوحيدة ، خطيئة الخطايا ومأساة مسيحيتنا الاسمية (بالاسم) .

اذا كنا ندرك هذا ، عندها نفهم ما هو الفصح ولماذا نحتاج الصوم . نفهم ان طقوس الكنيسة وخدمها موجودة بالدرجة الأولى لتساعدنا على اكتشاف

هذه الحياة الجديدة وتذوّقها. واذ نحن نضيعها ونخونها بسهولة، تدعونا الكنيسة بالصوم والتوبة للعودة اليها. كيف باستطاعتنا ان نرغب ونحب شيئاً لانعرفه ؟ كيف بمقدورنا ان نضع، في حياتنا، امراً فوق كل شيء ان كنا لم نره اونستمتع به ؟ كيف يمكننا باختصار ان نطلب ملكوت الله ونحن لا نملك فكرة عنه ؟ انها العبادة في الكنيسة التي كانت منذ البدء وما تزال مدخلاً لنا الى هذه الشركة في حياة الملكوت الجديدة. بواسطة هذه العبادة تكشف لنا الكنيسة بعضاً مما « لم تره عين ولم تسمع به اذن ولم يخطر على قلب بشر ما اعده الله للذين يحبونه ». وفي مركز هذه الحياة الطقسية، في قلبها وفي ذروتها ينتصب **الفصح**. انه الباب الذى ينفتح كل سنة على بهاء ملكوت المسيح، على التذوق السابق للفرح الابدي الذي ينتظرنا، على المجد والنصر الذي يملأ منذ الآن – مع انه غير منظور – الخليقة كلها. « لا موت بعد ». طقوس الكنيسة كلها مرتكزة حول الفصح. ولذا فالسنة الطقسية – اي تتابع المواسم والاعياد – تصبح رحلة نحو الفصح الذي هو في الوقت نفسه النهاية والبداية : نهاية كل ما هو قديم وبداية الحياة الجديدة. انه **العبور** الدائم من « هذا العالم » الى الملكوت الذي اعلن مسبقاً في المسيح.

ولكن الحياة **القديمة**، حياة التفاهة والخطيئة لا تتغير بيسر ولا نغلبها بسهولة. اما الانجيل فيتوقع من الانسان وينتظر منه جهداً، يبدو عملياً انه عاجز عنه. انه يتحدّاه برؤيا، بغاية، بطريقة حياة هي اكبر بكثير من قدرته. حتى ان الرسل عندما سمعوا تعليم السيد، سألوه بيأس : « وكيف يكون هذا ». ليس سهلاً بالواقع ان نرفض غاية صغيرة في الحياة، تقوم على الاهتمامات اليومية والبحث عن المقتنيات المادية وعلى الطمأنينة والراحة. غاية في الحياة كهذه لا تستحق ان تكون غاية « اذ نحن مدعوون ان نكون كاملين كما ان ابانا الذي في السموات هو كامل ». اما هذا العالم فيقول لنا بجميع وسائله الاعلامية وغيرها : كن سعيداً، كن غنياً، ادخل الطريق الواسع. اما المسيح

في انجيله فيقول : ادخل من الباب الضيق ، ناضل وتألم لانــــه هذا هو الطريق الحقيقي والوحيد للسعادة . واذا لم تساعدنا الكنيسة ، فكيف يمكننا ان نتبنى هذا الاختيار الرهيب ، كيف يمكننا ان نتـــوب ونعود الى ذاك الوعد الذي يعطينا اياه الفصح كل سنة ؟ هنا بالضبط يأتي دور الصوم المساعد الذي تقــدمه لنا الكنيسة ، دور مدرسة التوبة التي بمقدورها وحدها ان تهيئنا لقبول الفصح ليس كمجرد سماح بأن نأكل ونشرب ونسرّ ، بل بالضبط كنهاية ما هو قديم فينا ودخول الى « الجديد » .

لقد كانت الغاية الاولى من الصوم في الكنيسة الاولى اعداد الموعوظين ، اي المهتدين جديداً للمسيحية ، للمعمودية التي كانت تقام آنذاك اثناء خدمة الفصح. وبالرغم من ان الكنيسة نادراً ما تعمّد البالغين وبالرغم من اختفاء الموعوظية ، فالمعنى الاساسي للصوم يبقى هو نفسه . بالرغم من اننـــا معمدون ، ما نفقده وما نخونه بالضبط هو الذي اخذناه في معموديتنا . اذاً الفصح هو عودتنا كل سنة الى معموديتنا نفسها والصوم هو تهيئتنا لهذه العودة . هو هذا الجهدالبطيء والثابت كي نحقق « عبورنا » او فصحنا الى الحياة الجديدة في المســيح . واذا كانت طقوسنا الصوميـــة – كما سنرى – ما زالت تحتفظ حتى اليـــوم بطابعها التعليمي والعمادي، فهذا ليس أثراً باقياً من الماضي، بل انه امر صحيح وجوهري لنا . فالصوم والفصح هما لنا ، كل سنة ، مرة اخرى ، كشف جديد واستعادة لما صرناه في موت معموديتنا وقيامتنا .

الصوم هو بالحقيقة رحلة وحجّ . ومنذ ابتدائها ، منـــذ الخطوة الاولى في « الحزن اللامع والمشرق » للصوم ، نرى من بعيد الغاية الاخيرة. انه فرح القيامة انه الدخول الى بهاء الملكوت. هذه الرؤيا ، هذا التذوق المسبق للفصح هو الذي يجعل حزن الصوم مشرقاً ولامعاً ، وهو الذي يجعل من جهدنا الصيامي « نبعــاً روحياً » . هذا الليل قـــد يكون مظلماً وطويلاً ولكننا طوال الطريق نلمح فجراً لامعاً وسرّياً يشرق في الأفق « فلا تحرمنا من هذا الترقب يامحب البشر ».

الفصل الأول

التهيئة للصوم

١ ــ الرغبة : أحد زكا

قبل بدء الصيام الفعلي بفترة طويلة ، تعلن الكنيسة قدومه وتدعونا للدخول في فترة التهيئة السابقة للصوم . ومن الملامح المميزة للتقليد الطقسي الارثوذكسي ان كل عيد كبير او موسم ـ الفصح ، الميلاد ، الصوم الخ ـ يعلن ويهيأ مسبقاً . لماذا ؟ بسبب ادراك الكنيسة العميق للطبيعة البشرية . انهـا تعرف الضعف في تركيزنا و «الدنيوية» الرهيبة لحياتنا ولذا تدرك عدم قدرتنا على التغيير السريع ، على الانتقال فجأة من حالة روحية او عقلية الى حالة اخرى . ولذا قبـل فترة بعيدة من بدء الصوم الفعـلي تلفت الكنيسة انتباهنا لجدّيته وتدعونا للتأمل في معناه . قبـل ان نمارس الصوم تعطينا معناه . وتشمل هذه التهيئة خمسة آحاد متتالية تسبق الصوم ، خصص كل منها ـ بسبب الانجيل الذي يتلى فيه ـ لواحد من مظاهر التوبة الاساسية .

الاعلان الاول للصوم تذيعـه الكنيسة في الاحد الذي نقرأ فيه قصة زكا (لوقا ١٩ : ١ ــ ١٠) . انها قصة انسان قصير القامة لم يستطع ، بسبب ذلك ، ان يرى يسوع ولكنه كان يرغب كثيراً رؤيته حتى انه تسلق شجرة . ويسوع أجاب رغبته وذهب الى بيتـه . وهكذا فموضوع الاعلان الاول هو الرغبة . الانسان يتبع رغباته . حتى انه بمقـدور المرء ان يقول ان الانسان هو رغبة ،

وهذه الحقيقة النفسية الاساسية حول الطبيعة الانسانية يقرّها الانجيل : « حيثما يكون كنزك ، يقول الرب ، هناك يكون قلبك » . والرغبة القوية تغلب حدود الانسان الطبيعية . عندما يرغب المرء في شيء ما بعنف يعمل اشياء هو، عادة ، عاجز عن فعلها . واذا كان « قصيراً » يتغلب على نفسه ويتجاوزها . والسؤال الوحيد اذاً هو هل نرغب في الاشياء الصحيحة وهل قوة الرغبة التي فينا تتجه الوجهة الصحيحة او ان الانسان ، كما يقول الفيلسوف الوجودي والملحد جان بول سارتر ، « رغبة غير نافعة » ؟

لقد رغب زكا في « الشيء الصحيح » . لقد اراد ان يرى يسوع ويقترب اليه . انه النموذج الاول للتوبة ، اذ ان التوبة تبدأ عندما يكتشف الانسان الاساس العميق لكل رغبة : الرغبة لله وبرّه ، الرغبة للحياة الحقيقية . كان زكا « قصيراً » ، حقيراً خاطئاً ومحدوداً ، ولكن رغبته تغلبت على كل هذا . جذبت انتباه السيد وجلبته الى منزل زكا . هذا هو الاعلان الاول ، الدعوة الاولى : رغبتنا الحقيقية والعميقة ان نقرّ بهذا الجوع والعطش للمطلق الذي فينا عرفناه ام لم نعرفه . هذا المطلق الذي اذ ننحرف عنه ونبعد رغبتنا عنه ، نصبح بالواقع « رغبة غير نافعة ». واذا كنا نرغب بعمق وبقوة فالرب يستجيب لرغبتنا .

٢ ــ التواضع : أحد الفريسي والعشار

يدعى الاحد الثاني « احد الفريسي والعشار » . وفي غروب السبت الذي يدخلنا الى هذا الاحد ، يبدأ استعمال كتاب الصوم « التريودي » وتنشد قطع منه بالاضافة الى الترانيم والصلوات الاسبوعية للقيامة . وتقدم هذه الصلوات المظهر الثاني والرئيسي من التوبة الا وهو **التواضع** .

يصف انجيل هذا الاحد (لوقا ١٨ ١ ـ ١٤) انساناً معجباً بنفسه ويقوم

بجميع واجباته الدينية . انـه معتدّ بنفسه وفخور بها . ولكنه بالواقع يشوّه معنى الدين . لقد قصره على الواجبات الخارجية وقاس تقواه بمقدار المال الذي يدفعه للهيكل . اما بالنسبة للعشار فقد اتضع وقـــد برره تواضعه امام الله . ولكن اذا كان هناك من قيمة يحتقرها بالكلية ويرفضها انسان اليوم هي بالواقع فضيلة التواضع . فالحضارة الـتي نعيش فيها تغرس فينا التفاخر وتمجيد الذات وبرّها . انها تقوم على الافتراض ان بمقدور الانسان ان يحقق اي شيء بذات سلطانه. وتصوّر الله على انه الكائن الذي يبارك دائماً انجازات الانسان واعماله الحسنة . والتواضع ، ان كان فردياً ام جماعياً ، وطنياً ام قومياً ، ينظر اليـــه كعلامة ضعف او كشيء غير لائق بالانسان الحقيقي . حتى ان كنائسنا أليست مشرّبة بهذه الروح الفريسية ؟ ألا نريد ان تكون كل مساهمة لنا وكل « عمل صالح » لنا من « اجل الكنيسة » معترفاً به ومعلناً وممدوحاً ؟

كيف يصير الانسان متواضعاً ؟ الجواب بالنسبة للمسيحي بسيط للغـاية : بتأمل المسيح ، التواضع الالهي المتجسد ، الذي كشف الله فيه مرة والى الابـد مجده كتواضع وتواضعه كمجد. « اليوم » ، قال الرب يسوع في الليلة التي بلغ فيها ذروة نكرانه للذات « يتمجد ابن البشر ويتمجد الله فيه » . نتعلم التواضـــع بتأملنا المسيح الذي قال : « تعلموا مـني فاني وديع ومتواضع للقلب » . نتعلمه بالنهاية عندما نقيس كل شيء به وان نعيد كل شيء اليه . لانـه بدون المسيح ، التواضع الحقيقي مستحيل ، بينما عند الفريسي ، تصبـــح الديانة كلها افتخاراً بالانجازات البشرية الذي هو شكل آخر من تمجيد الذات الفريسي .

اذاً يبدأ الموسم الصيامي بالتماس ، بصلاة من اجل التواضع الذي هو بـدء التوبة الحقيقية . فالتوبة هي قبل كل شيء **عودة للنظام الحقيقي والاصيـــل للاشياء** ، استعادة للرؤيا الصحيحة . اذاً هي مؤسسة على التواضع ، والتواضع ، التواضع الالهي ، هو ثمرتها وغايتها . يقول قنداق هذا اليـــوم : « لنهربنّ من كلام الفريسي المتشامخ ، ونتعلم تواضع العشار هاتفـين بالتنهدات الى المخلص :

ارحمنا ايها الحسن المصالحة وحدك » .

اننا على ابواب التوبة وفي غروب السبت بعدما نعلن قيامة المسيح وظهوره « اذ قد رأينا قيامة المسيح » نرنم للمرة الاولى الطروبارية الـتي سترافقنا خلال الصوم بأكمله :

« افتح لي ابواب التوبة ، يا واهب الحياة ، لان روحي تبتكر الى هيكل قدسك، آتياً بهيكل جسدي مدنساً بجملته ،لكن بما انك متعطف، نقّني بتحنّن مراحمك»

« سهّلي لي مناهج الخلاص ياوالدة الاله، فاني قد دنست نفسي بخطايا سمجة ، وافنيت عمري كله بالتـــواني ، لكن بشفاعتك نقني من كل رجاسة »

« اذا تصورت كثرة افعالي الرديئة انا الشقي ، فاني ارتعد من يوم الدينونة الرهيب لكني اذ انا واثـــق بتحنن اشفاقك : اهتف مثـــل داود : ارحمني يا الله كعظيم رحمتك » .

٣ ـــ العودة من المنفى : أحد الابن الضال

نقرأ في الاحد الثالث من التهيئة للصوم انجيل الابن الضال (لوقا ١٥ : ١١ ـ ٣٢). يكشف لنا هذا الانجيل مع ترانيم هذا اليوم، التوبة كعودة من المنفى. يخبرنا الانجيل ان الابن الضال ذهب الى بـلاد بعيدة وهناك انفق كل ما عنده . بلد بعيد . هذا هو التعريف الفريد الذي ينطبق على الانسان الذي يرغب ان يقترب الى الرب . والانسان الذي لم يعش هذه الخبرة ، ولو لفترة قصيرة ، ولم يشعر انه منفي وبعيد عن الله وعن الحيـــاة الحقيقية ، لن يفهم مطلقاً ما هي المسيحية . والانسان الذي يشعر براحة تامة في هذا العالم وملذاته ولم يجرحه

الشوق الى حقيقة اخرى ، لن يفهم ما هي التوبة .

كثيراً ما نفهم التوبة كتعداد بارد و « موضوعي » للخطايا والتعديات ، او كاقرار بالجريمة امام اتهام قضائي . وكثيراً ما ننظر للاعتراف والحل من منظار قضائي . ولكن هناك شيئاً اساسياً يهمل وبدونه يفقد الاعتراف والحل كل معنى وقوة . هذا الشيء هو بالضبط الشعور بالغربة عن الله ، عن فرح الشركة معه والحياة الحقيقة فيه . انه من السهل بالواقع ان نقرّ اننا لم نصم في الايام المفروضة او اهملنا الصلاة او غضبنا . ولكنه شيء آخر مختلف بالكلية ان ادرك فجأة انني دنّست او أضعت جمال حياتي الروحية ، انني بعيد جداً عن بيتي الحقيقي ، عن حياتي الحقيقية ، وان شيئاً ثميناً وطاهراً وجميلا قد فقد في صلب حياتي . هذه هي التوبة ، انها الرغبة العميقة بالعودة ، بالرجعة الى البيت الضائع . لقد اعطاني الله مواهب عظيمة : اولها الحياة والقدرة على التمتع بها وعلى جعلها مليئة بالمعنى والمعرفة والمحبة . وبالتالي اعطاني في المعمودية الحياة الجديدة في المسيح ، موهبة الروح القدس ، وسلام الملكوت الابدي وفرحه . لقد اخذت معرفة الله وبه معرفة كل شيء والقدرة على ان اكون ابناً لله . كل هذا اضعته . وكل هذا اضيعه في كل وقت ليس بخطايا او تعديات محددة ولكن في خطيئة الخطايا وهي الانحراف عن حبي لله وتفضيلي «للبلد البعيد» على بيت الاب الجميل.

ولكن الكنيسة هنا ، لتذكرني بما اهملت واضعت . وبهذا التذكير اتذكر ، كما يقول قنداق هذا اليوم « لما عصيت مجدك الابوي بجهل وغباوة ، بدّدت في المعاصي الغنى الذي اعطيتني . فلذلك اصرخ اليك بصوت الابن الشاطر هاتفاً : خطئت امامك ايها الاب الرؤوف فاقبلني تائباً واجعلني كأحد اجرائك ...».

وعندما اتذكر ، اجد في نفسي الرغبة للعودة والقدرة عليها ... « سأعود الى الاب الرؤوف صارخاً بدموع : اقبلني كواحد من اجرائك ... » . وهناك ميزة فريدة لأحد « الابن الضال » علينا ان نذكرها هنا ، وهي اننا في السحرية وبعد ترتيل البوليوليون نرتل مزمور الحزن والحنين المزمور ١٣٧ :

« على انهار بابل هناك جاسنا وبكينا عندما تذكرنا
صهيون ... كيف نرتل ترتيلة الرب في ارض غريبة ؟
ان انا نسيتك يا اورشليم فلتنسني يميني وليلتصق لساني
بحنكي ان لم اذكرك . ان لم افضل اورشليم على اعظم
اسباب فرحي ... » .

انه مزمور المنفى ، غنّاه اليهود ايام النفي في بابل عندما تذكروا اورشليم مدينتهم المقدسة . وهكذا اصبح نشيد الانسان الذي يدرك انه منفيّ ، بعيد عن الله واذ يدرك ذلك يصبح انساناً من جديد . فالانسان في هذا العالم الساقط لا يمكن لشيء ان يشبعه بالكلية لانه بطبيعته وبدعوته سائح يطلب المطلق . وهذا المزمور نرنّمه ايضاً مرتين في الاحدين الاخيرين قبل الصوم. وهو يكشف الصوم كسياحة ورحلة ، كتوبة ودعوة .

٤ ــ الدينونة الاخيرة : احد مرفع اللحم

ويسمّى الاحد التالي « احد مرفع اللحم » لان بعده يبدأ صوم محدود هو الامتناع عن اكل اللحم . وهذا المنع الذي وضعته الكنيسة يجب ان يفهم في ضوء ما قلناه سابقاً حول معنى التهيئة . لقد بدأت الكنيسة تعدّنا للجهد الكبير الذي تنتظره منا بعد سبعة ايام . انها تدخلنا تدريجياً الى هذا المجهود مدركة ضعفنا وهزالنا الروحي .

في صباح هذا اليوم (سبت مرفع اللحم) تدعونا الكنيسة للذكرى العامة لجميع الذين « رقدوا على رجاء القيامة والحياة الابدية». انه بالواقع يوم الكنيسة العظيم للصلاة من اجل اعضائها الراقدين . كي نفهم معنى هذا الربط بين الصوم والصلاة من اجل الراقدين ، علينا ان نتذكر ان المسيحية هي ديانة المحبة .

فالمسيح لم يترك لتلاميذه عقيدة خلاص فردي ولكن وصية جديدة « ان يحبوا بعضهم بعضاً » ، وقد اضاف « وبهذا يعرف الجميع انكم تلاميذي ان كان لكم حب بعض لبعض » . وهكذا فالمحبة هي الاساس ، الحياة الجوهرية للكنيسة التي هي حسب القديس اغناطيوس الانطاكي « وحدة الايمان والمحبة » . والخطيئة هي دائماً غياب المحبة وبالتالي انفصال وانعزال . والحياة الجديدة التي اعطانا اياها المسيح والتي اوصلتها الكنيسة لنا ، هي قبل كل شيء حياة مصالحة ، « الجمع الى واحد جميع المشتتين » ، واعادة المحبة التي حطمتها الخطيئة . فكيف نستطيع ان نعود الى الله ونبدأ مصالحتنا معه اذا كنا لم نعد ، في انفسنا ، الى وصية المحبة الفريدة ؟ فالصلاة من اجل الراقدين هي تعبير جوهري عن الكنيسة كمحبة . اننا نطلب من الله ان يذكر الذين نذكرهم ، ونحن نذكرهم لاننا نحبهم . واذ نصلي من اجلهم فنحن نلقاهم في المسيح الذي هو محبة ، والذي بما انه محبة يغلب الموت الذي هو ذروة الانفصال واللامحبة . في المسيح لا فرق بين الاحياء والاموات لان الجميع هم احياء فيه . انه الحياة وهذه الحياة هي نور الانسان . واذ نحب المسيح ، نحب جميع الذين فيه ، واذ نحب الذين فيه فنحن نحب المسيح . هذا هو قانون الكنيسة وهذا هو الاساس المنطقي الواضح لصلاتها من اجل الراقدين . انه بالحقيقة حبّنا للمسيح الذي يبقيهم احياء ولانه يحفظهم في المسيح . ولذا ما اعظم الخطأ الذي يقع فيه اخوتنا الغربيون الذين يجعلون الصلاة من اجل الموتى مجرّد عقيدة قانونية «لاستحقاقات» و«تعويضات» او يرفضونها كعديمة الجدوى . وسبت مرفع اللحم هذا لتذكار الراقدين هو نموذج لجميع التذكارات للراقدين وهو يتكرّر في السبوت الثاني والثالث والرابع من الصوم .

المحبة ايضاً هي موضوع احد مرفع اللحم ، وانجيل هذا الاحد هو مثل المسيح عن الدينونة الاخيرة (متى ٢٥ : ٣١ – ٤٦). عندما يأتي المسيح ليديننا ما هو مقياس دينونته ؟ الانجيل يجيب : **المحبة** – ليس محض اهتمام انساني بعدالة مجردة و « بفقير » مجهول ، بل محبة شخصية وملموسة لاشخاص حقيقيين ، اي

لاشخاص يضعهم الله في طريقي . وهذا التمييز مهم جداً في ايامنا لانـه يتكاثر عدد المسيحيين الذين يميـلون لمطابقة المحبة المسيحية مـع الاهتمامات السياسية والاقتصادية والاجتماعيـة . وبكلمة اخرى انهم ينتقلون من **الشخص** الفريـد ومصيره الشخصي الفريد لمقولات بلا هوية مثل الطبقة والجنس و .. هذا لايعني ان هذه الاهتمامات هي خاطئة . انه لواضح ان المسيحيين كمواطنين مدعوون للاهتمام بأقصى طاقاتهم باقامة مجتمع عادل تسوده الاخوة والمساواة . كل هذا ينبع من المسيحية وقد توحيه المحبة المسيحية . ولكن المحبة المسيحية بحدّ ذاتها هي شيء مختلف . ويجب علينا ان نفهم هذا الاختلاف وان نبقيـه اذا ازدنا ان نحافظ على الكنيسة وعلى فرادة رسالتها وليس انتصبح مجرد مؤسسة اجتماعية ، الامر الذي يخالف بالكلية جوهرها .

المحبة المسيحية هي « الامكانية المستحيلة » ان نرى المسيح في الانسان الآخر ايّاً كان هذا الانسان الذي قرّر الله في تصميمه الابـدي والسرّي ان يدخله الى حياتي ولو كان للحظات معدودة. ان احبّه وليس ان اجعل منه فرصة لـ «عمل صالح » او ممارسة لحسنة بل بداية رفقة ابدية في الله نفسه . فما هو الحب بالواقع اذا لم يكن هذه القدرة السرية التي تتجاوز ما هو عرضي وخارجي في الآخر ـ مظهره الخارجي ، طبقته الاجتماعية ، عرقه ، طاقته الفكرية ـ وتبلغ **نفسه** ، **اصالة** كيانه الشخصي بوحدته وفرادته ، ان تبلغ بالحقيقة ما هو الهي فيه ؟ اذا كان الله يحب كل انسان لانه بالضبط الوحيد الذي يعرف الكنز الفريد الذي لا يثمّن ، اي النفس التي اعطاها لكل انسان. فالمحبة المسيحية هي هذا الاشتراك في تلك المعرفة الالهية وموهبة هذا الحب الالهي . ليس هناك حب «لاشخصي» لان الحب هو هذا الاكتشاف العجيب « للشخص » في « الانسان » ، لمـا هو شخصي وفريد في ما هو مشترك وعام. انـه الاكتشاف في كل انسان لما يحب فيه ، لما هو من الله .

من وجهة النظر هذه ، المحبـة المسيحية هي احياناً النقيض لـ « الفعاليـة

الاجتماعية » التي غالباً ما نعرّف بها المسيحية اليوم . وبالنسبة للذي يؤمن بهذه « الفعالية الاجتماعية » ليس موضوع المحبة « الشخص » بل « **الانسان** » كوحدة مجرّدة ، لانسانية لا تقل عنها تجريداً . اما بالنسبة للمسيحية فيحب الانسان لانه **شخص** . هناك الشخص يحوّل **لانسان** اما هنــا فالانسان ننظر اليه فقط كشخص . « الفعاليّ الاجتماعي » لا يهتم بمـا هو شخصي وهو يضحيه بسهولة من اجل « الصالح العام » . قد تبدو المسيحية ، وهذا هو واقعهـا الى حد ما ، شكـّاكة بهذه « الانسانية المجردة » . ولكنها ترتكب خطيئة مميتة ضد نفسها كل مرة تتخلى عـن اهتمامها ومحبتها للشخص . الفعالية الاجتماعية هي دائمـاً « مستقبلية » في طرحها . انها تعمل دائمـاً باسم العدالة والنظام والسعادة التي ستأتي والتي ستتحقق . المسيحية تكترث قليـلاً بهذه المشكلة المستقبلية وتشدد كثيراً على **الحاضر** ، على اللحظة الحاسمة من اجل المحبة. هذان الموقفان لايتنافيان كلياً ولكن علينا الا نخلطهما . انه لاكيد ان على المسيحيين واجبات تجاه « هذا العالم » وعليهم ان ينجزوها . هذا هو مجال « الفعالية الاجتماعية » التي تخص كلياً « هذا العالم » . ولكن المحبـة المسيحية بغايتها ، تتجاوز « هذا العالم » . انها بحد ذاتها شعاع ، اعلان للملكوت الله . انهـا تتغلب وتتجاوز جميع الحدود وجميع « ظروف » هذا العالم لأن محركها وغايتها وملأها هو في الله . ونحن نعلم انه حتى في هذا العالم « القابع في الشر » ، الانتصارات الدائمـة والمغيّرة ، هي انتصارات المحبة . وهذه هي رسالة الكنيسة الحقيقية ان تذكـّر الانسان بهذه **المحبة الشخصية** ليملأ هذا العالم الخاطىء بها .

ان مثل الدينونة الاخيرة يدور حول المحبـة المسيحية . لسنا جميعاً مدعوين كي نعمل من اجل «الانسانية» ولكن كل واحد منا اخذ موهبة المحبة المسيحية. ونحن ندرك ان كل انسان هو بالنهاية يحتاج لهذه « **المحبة الشخصية** » ، ان نقرّ ان فيه تلك النفس الفريدة التي تعكس جمال الخلق كله بطريقة فريدة . ونحن نعرف ايضاً ان الناس هم في السجن او مرضى او عطشانين او جوعانين لأنهم قد

حرموا من هذه المحبة الشخصية . ونحن بالنهاية ندرك انه بالرغم من حياتنا المحدودة ، ان كل واحد منا ، بسبب هذا الحب الالهي الذي اخذه ، مسؤول عن دائرة صغيرة من ملكوت الله . وعلى هذا سوف ندان ان كنا قبلنا هذه المسؤولية او لا ، اذا كنا احببنا ، او رفضنا الحب ، « لانه مهما فعلتم باخوتي هؤلاء الصغار قد فعلتموه بي » .

٥ ــ الغفران : احد مرفع الجبن

والآن قد وصلنا الى آخر يوم قبل الصوم . قد رأينا سابقاً في اسبوع مرفع اللحم ، الذي يسبق احد الغفران ، ان يومي الاربعاء والجمعة وضعا على حدة كيومي صيام كامل : لا تقام فيهما خدمة قداس الهي وترتيب الصلوات فيهما يحمل طابع الصوم . ففي غروب الاربعاء نرحّب بالصوم بالترنيمة الآتية :

« قد اشرق ربيع الصيام وزهر التوبة .
فلننقّي اذاً ذواتنا يا اخوة من كل دنس ،
مرتلين لمانح النور المجد لك يا محب البشر وحدك » .

وبعدها في سبت مرفع الجبن تذكر الكنيسة « جميع الابرار الذين تلألأوا بالنسك » رجالاً ونساء . هؤلاء القديسون هم النماذج التي علينا ان نقتدى بها ، والمرشدون لنا في طريق الصوم والتوبة الصعب . وفي هذه المسيرة التي سنبدؤها نحن لسنا وحدنا . ففي غروب الجمعة الذي يتقدم هذا السبت نرنم :

« هلمّ بنا يا جميع المؤمنين لنمدح مصاف الآباء الابرار
انطونيوس الهامة الموقرة وافتيموس اللامع ،
الصائرين بتصرفاتهم كفردوس نعيم آخر ... » .

وفي قطعة الابوستيخن من المساء نفسه ، نرنم لهم كمرشدين لنا :

« اياكم نكرّم ايها الآباء الابرار المرشدون ،
لاننا بكم عرفنا بالحقيقة السلوك في المنهج المستقيم .
فمغبوطون انتم اذ قد تعبّدتم للمسيح ... » .

وبالنهاية يصل اليوم الاخير الذي يسمّى عادة « احد الغفران » . ولكن علينا ان نتذكر الاسم الذي تطلقه عليه الكنيسة في السنكسار وهو « تذكار نفي آدم اول الجبلة من فردوس النعيم » . ويختصر بالواقع هذا العنوان التهيئة كلها للصوم . اننا نعرف ان الانسان خلق من اجل الفردوس ، من اجل معرفة الله والشركة معه . وخطيئة الانسان حرمته من الله ومن الحياة السعيدة وما حياته على الارض الا حياة نفي . والمسيح ، مخلّص العالم ، يفتح باب الفردوس لكل من يتبعه . والكنيسة اذ تكشف لنا جمال الملكوت ، تجعل حياتنا حجاً الى بيت الاب السماوي . وهكذا نحن في بداية الصوم نشبه آدم :

« ان آدم بواسطة الاكل ، طرح من الفردوس ،
لذلك جلس ازاءه منتحباً مولولاً بصوت يرثى له قائلاً :
ويلي ماذا حلّ بي انا الشقي . تجاوزت وصية واحدة لسيدي ،
فعدمت كل صنف من الخيرات . فيا ايها الفردوس الاقدس
الذي من اجلي نصبت ، ومن اجل حوّاء اغلقت .
ابتهل الى من صنعك وجبلني لكيما امتليء من ازهار رياضك .
لذلك هتف المخلّص نحوه قائلاً :
لست اؤثر هلاك جبلتي . لكن اشاء ان تخلص
والى معرفة الحق ان تقبل . لأن الآتي اليّ لا اطرحه خارجاً » .

ذكصا ابوستيخن سبت مرفع الجبن

الصوم هو محرّرنا من عبودية الخطيئة ، من سجن « هذا العالم » وانجيل هذا الاحد (متى ٦ : ١٤ - ٢١) يضع شروط هذا **التحرير** . الشرط الاول هو **الصوم** ، هو الرفض لشهوات طبيعتنا الساقطة والرفض لقبولها كأمور عادية وطبيعية ، هو الجهد لتحرير ذواتنا من تسلط الجسد والمادة على الروح . كي يكون صومنا مثمراً ، علينا الا نكون مرائين ، « متباهين » . علينا الا « نظهر للبشر صائمين ولكن لابينا الذي يرى في الخفية » . والشرط الثاني هو **الغفران** . « اذا غفرتم للناس زلاتهم ، يغفر لكم ابوكم السماوي » . انتصار الخطيئة ، العلامة الرئيسية لتسلطها على العالم ، يقوم اساساً في الانقسام ، والتعارض والانفصال والبغض . ولذا الذي يدكّ الأساس الذي يقوم عليه حصن الخطيئة هو الغفران : اي العودة الى الوحدة ، والتعاضد والمحبة . ان اغفر ، هذا يعني ان اضع بيني وبين « عدوي » الغفران المشع لله نفسه . ان اغفر يعني ان ارفض اليأس من الناس وان انظر اليهم من خلال المسيح . الغفران هو بالحقيقة ان نخترق حدود العالم الخاطىء والساقط .

يبدأ الصوم فعلاً بغروب هذا الأحد . وهذه الخدمة الفريدة ، الجميلة والعميقة ، غائبة في كثير من كنائسنا . ولا شيء يكشف « شمولية » الصوم الكبير في الكنيسة الارثوذكسية وعمق الفداء للانسان اكثر من خدمة هذا الغروب .

تبدأ صلاة الغروب والكهنة في ملابسهم اللامعة الاحتفالية . وبعد ترتيل المزمور « يا رب اليك صرخت ... » ، تعلن الصلاة مجيء الصوم وبعده اقتراب الفصح .

> « لنبدأنّ اوان الصيام بحبور مكرّسين ذواتنا للجهادات الروحية . ولننقّ النفس ونطهّر الجسد صائمين عن الاهواء كصومنا عن الاطعمة ، متنعمين

بفضائل الروح ، التي اذا ثابرنا عليها بشوق ، نستحق
جميعنا مشاهدة آلام المسيح الاله الكلية الوقار والفصح
المقدس ، مبتهجين ابتهاجاً روحياً » .

ثم يأتي كالعادة الايصودون مع ترنيمة الغروب « ايها النور البهي ... » ثم يذهب الخادم (الكاهن) الى « الكرسي العالي » وراء المائدة ليعلن الترنيمة المسائية (البروكيمنن) التي تعلن عادة نهاية يوم وبداية يوم آخر . ترنيمة هذا المساء العظيمة تعلن بداية الصوم .

« لا تصرف وجهك عن عبدك ، فاني حزين ، فاستجب
لي سريعاً . انظر الى نفسي وخلصها » .

اصغ لهذه الترنيمة الفريدة ـ لهذا الصراخ المفاجيء الذي يملأ الكنيسة : « .. لاني حزين .. » وساعتها تفهم نقطة البداية في الصوم: المزج السري لليأس والرجاء ، للظلمة والنور . لقد وصلت الآن التهيئة الى نهايتها . وانا واقف الآن امام الله . امام جمال ملكوته ومجده . اتحقق انني انتمي لهذا الملكوت وان لا بيت آخر لي الاه ، ولا فرح آخر ولا غاية اخرى . كما ادرك ايضاً انني منفي منه الى الخطيئة وحزنها . « لانني حزين » وادرك بالنهاية ان الله وحده يقدر ان يساعدني في الحزن ، انه وحده « ينظر الى نفسي » . والتوبة هي قبل كل شيء هذا الصراخ اليائس لهذا العون الالهي .

خمس مرات نعيد هذه الترنيمة . والصوم ها هو هنا . وعندها نضع الثياب اللامعة جانباً وتطفأ الانوار . وعندما يتابع الخادم الطلبات المسائية ، تجيب الجوقة بلحن صيامي. ولأول مرة تقرأ صلاة افرام السرياني وترافقها السجدات. وفي نهاية الخدمة يقترب المؤمنون من الكاهن ويستغفرونه كما يستغفر كل واحد اخاه . وبينما يتصالح المؤمنون ويبدأ الصوم بهذه المبادرة الحبّية ، مبادرة الوحدة والاخوة ، ترنم الجوقة الترانيم الفصحية .

اربعون يوماً سنتيه اثناءها في صحراء الصوم . ولكن في النهاية يلمع مسبقاً نور القيامة ، نور الملكوت .

الفصل الثاني

العبادة في الصوم : صلوات الصوم

١ ــ الحزن البهي

قوام الصوم ، بالنسبة للكثير من الارثوذكسيين ، ان لم يكن بالنسبة لغالبيتهم ، مجموعة محددة من الوصفات والقواعد الشكلية ، جلها سلبي : الامتناع عن بعض الوان الاطعمة ، عن الرقص ، ويمكن عن السينما . هـذه هي درجة تغربنا عن روح الكنيسة الحقيقي حتى انه ليستحيل علينا ان نفهم ان هناك « شيئاً آخر » في الصوم ، شيئاً بدونه جميع هذه الوصفات تفقد كثيراً من معناها . ان افضل وصف لهذا « الشيء الآخر » هو انه « جو » او « مناخ » او حالة عقلية او روحية يدخل اليها الانسان ، تتغلغل في حياتنا كلها خلال سبعة اسابيع . فلنشدد مرة اخرى على ان الغاية من الصوم ليست في بعض الفروض الشكلية ، بل في ان يلين قلبنا لينفتح على حقائق الروح ويختبر «العطش والجوع » قصد الشركة مع الله .

هذا « الجو » الصيامي ، هذه «الحالة الروحية» الفريدة تنشأ خاصة بواسطة الصلوات ، بالتغييرات المختلفة التي تدخل اثناء هذا الموسم الى الحياة الطقسية . اذا نظرنا لهذه التغييرات بمعزل عن بعضها البعض بدت لنا كقواعد غير مفهومة او كتعليمات شكلية علينا ان نكملها . ولكن اذا نظرنا اليها ككل ، وجدناها تكشف روح الصوم وتشركنا به ، تجعلنا نحس ونختبر هذا « الحزن البهي »

الذي يشكل الرسالة الحقيقية للصوم . ان الانســان باستطاعته ان يقول بدون مبالغة ان الآباء الروحيين والمؤلفــين الملهمين الذين كتبوا اناشيد التريوديون والذين نظموا شيئاً فشيئاً الترتيب العام للخدم الصياميـــة والذين زينوا خدمة القدسات السابق تقديسها بذلك الجمال الخاص بها ، ان لهؤلاء جميعاً فهماً وحيداً للنفس البشرية . اقد عرفوا بالحقيقة فن التوبة ، وكل سنة في الصوم يجعلون هذا الفن بمتناول اي انسان له عيون لترى وآذان لتسمع .

قلت ان الطابع العام هو طابع « الحزن البهي » . انا متأكد ان انساناً ذا معرفة محدودة بالعبادة يستطيع ان يفهم دوماً معنى هذه العبارة المتناقضة فور دخوله الى الكنيسة في الصيام . من جهة هنــاك نوع من الحزن الصامت يتخلل الخدمة : الثياب الكهنوتية سوداء ، الخدم اكثر من العادة واكثر رتابــة ، لا توجد تقريباً اية حركة . تتناوب القراءات والترنيمات ولكن شيئاً ما لا يحدث . في فترات منتظمة يخرج الكاهن من الهيكل ويقـــرأ الصلاة الصغيرة نفسها . وتجيب الجماعة المؤمنة كلها على كل طلبة من هذه الصلاة بالسجدات . وهكذا تقف لفترة طويلة في هذه الرتابة ، في هذا الحزن الصامت .

ولكن بعدها نبدأ نحس ان هذا التطويل وتلك الرتابة ضروريان لنختبر ذاك « الفعل » السري للخدمة في انفسنا الذي لم نلحظه في البداية . رويــداً رويداً نبدأ نتفهم او بالاحرى نحس ذلك الحزن انه بالفعل بهياً . كما نحس تحولاً سرياً يبدأ في اعماقنا ، كأننا وصلنا الى مكان لا يبلغه ضجيج الحياة وهرجها ومرجها . كل ما يبدو لنا مهماً جداً ليملأ عقولنا وكل ذلك القلق الذي اصبح عملياً طبيعتنا الثانية ، يختفي كلياً ونبدأ نشعر اننا تحررنا واصبحنا سعداء ليس بسعادة سطحية وتافهة تذهب وتعود عشرين مرة في النهار ، انها سعادة عميقـة تنبع من اعماق النفس التي لامست كما يقول دوستويفسكي « عالماً آخراً » . وهذا الذي لامسته يتألف من نور وسلام وفرح وثقة لا يعبر عنها . ساعتها نفهم لماذا يجب ان تكون الخدم طويلة ورتيبة ظاهراً . نفهم انه من المستحيل ان نعبر

من حالتنا الطبيعية التي تقوم كلياً تقريباً على الهرج والمرج والسرعـــة والهمّ الى تلك الحالة الجديدة بدون هذا « الفجر الهـادىء » ، بدون ان نستعيد في انفسنا قدراً كبيراً من الثبات الداخلي . لهذا السبب لن يقدر اولئـــك الذين ينظرون الى الخدم الكنسية « كواجبات » ويفتشون دائمـــاً عن الحد الادنى المطلوب (كم مرة يجب ان نذهب الى الكنيسة وكم مرة يجب ان نصلّي ؟) ان يفهموا الطبيعة الحقيقية للعبادة التي تنقلنا الى عـــالم آخر ، عالم حضور الله على مهـــل بسبب طبيعتنا الساقطة التي اضاعت المقدرة لتذهب الى هنـــاك بشكل طبيعي .

وهكذا اذ نختبر هـــذا التحرير السري نصبح خفيفين وسلاميين وتتحول الخدمة برتابتها وحزنها لتأخذ معنى جديداً ، ينيرها جمال داخلي كما ينير شعاع الشمس قمة الجبل عند الفجر بينما تغمر الظلمة اعماق الوادي . ان هـــذا النور وذاك الفرح السري يأتيان من الـ « هللويا » الطويلة ومن اللحن العـــام للخدم الصيامية . وما كان يبدو في البـــدء رتيباً ينكشف سلامياً ، وما بدا حزناً يختبر الآن كحركة النفس الاولى تسترد عمقها الضائع . وهذا ما تعلنه الآية الاولى من هللويا الصيام كل صباح :

« من الليل تبتكر روحي اليك يا الله . لأن اوامرك نور على الارض ».

« الحزن البهي » : حزن منفاي وضياع عمري ، بهاء حضور الله وغفرانه ، فرح استعادة الرغبة في الله والسلام في استعادة البيت . هذا هو منـــاخ الخدم الصيامية وهذا هو تأثيرها الاول والعام على نفسي .

٢ ـــ صلاة افرام البستاني

هذه هي الصلاة التي تستحق بالدرجة الاولى ان تسمى « الصلاة الصيامية »

اكثر من جميع الترانيم والصلوات التي نتلوها في الصوم . وينسبها التقليـــد الى واحد من اعظم المعلمين الروحيين الا وهو القديس افرام السرياني وهذا نصها :

« ايها الرب وسيد حياتي
اعتقني من روح البطالة والفضول ،
وحب الرئاسة والكلام البطال ،
وانعم عليّ انا عبدك الخاطىء ،
بروح العفة واتضاع الفكر والصبر والمحبة .
نعم يا ملكي والهي هب لي ان اعرف ذنوبي وعيوبي ،
والّا ادين اخوتي فانك مبارك الى الابد آمين » .

تقرأ هذه الصلاة مرتين في نهاية كل صـــلاة صيامية من الاثنين حتى الجمعة (وليس ايام السبوت والآحاد لان خدم هـــذه الايام كما سنرى ، لا تتبع نمطاً صيامياً) . عند القراءة الاولى تلحق كل طلبة سجدة . وبعدها ننحني جميعاً اثنتي عشرة مرة قائلين « يا الله طهرني انا الخاطىء » . ثم تكرر الصلاة بسجدة نهائية في آخرها .

لماذا تحتل هذه الصلاة الصغيرة مركزاً مهماً في الخدم الصيامية كلها ؟ لأنها تعدد بطريقة فريدة جميع مقومات التوبة السلبية والايجابية ولأنها بمثابة «محك» لجهدنا الشخصي في الصيام . وغاية هذا الجهد اولاً ان يحررنا من بعض الامراض الروحية الاساسية التي تطبع حياتنا وتحول بالواقـــع ان نبدأ توجيه انفسنا نحو الله .

المرض الاساسي هو **البطالة** . وهي ذلك الكسل الغريب ، تلك السلبيـــة التي تمتلك كياننا كله والتي تدفعنا دائماً الى « الاسفـل » بدلاً من « الاعلى » ، والتي تقنعنا دائماً ان لا تغيير ممكن وبالتالي مرغوب . انها بالواقـــع سخرية

عميقة تجيب امام كل تحدّ روحي : « ولماذا التعب » ؟ وتجعل من حياتنا جهداً ضائعاً . انها اصل الخطايا كلها لأنها تسمم الطاقة الروحية في منبعها الاصيل .

ونتيجة البطالة هو الفضول . وهي حالة اليأس والقنوط التي اعتبرها جميع الآباء اعظم خطر للروح . واليأس هو ان يستحيل على الانسان ان يرى اي شيء جيداً او ايجابياً وان يجعل كل شيء سلبياً ومتشائماً . انه قوة شيطانية فينا لأن الشيطان هو اساساً كاذب . انه يكذب على الانسان بشأن الله والعالم ، ويملأ الحياة بالظلمة والسلبية . اليأس هو انتحار النفس لانه عندما يمتلك الانسان يصبح هذا الاخير عاجزاً بالكلية ان يرى النور ويرغب فيه .

« حب الرئاسة » . قد يبدو هذا غريباً ان البطالة واليأس هما اللذان يملآن حياتنا بحب الرئاسة . فبافسادهما موقفنا الكلي من الحياة يجعلانها فارغة بدون معنى ويجبراننا على ان نطلب تعويضاً عن هذا بأخذنا موقفاً خاطئاً بالكلية تجاه الآخرين . اذا لم يستقطب الله حياتي ولم تطلب الفضائل الأبدية فهي ستصبح لا محالة انانية ، انركزية (كلمة نحتناها من مركزية الأنا ، Egocentrism) ، وهذا يعني ان جميع الكائنات الاخرى اصبحت ادوات لاكتفائي الذاتي. اذا لم يكن الرب سيداً لحياتي، فسأصبح انا رباً وسيداً لنفسي، المركز المطلق لعالمي ، (التشديد على ياء التخصيص) ، افكاري ، رغباتي ، احكامي . حبّ الرئاسة اذا هو انحراف اساسي في علاقتي بالآخرين ، وتفتيش عن اخضاعهم لي . وقد لا يظهر هذا بالضرورة بدافع عملي لاجبار الآخرين والسيطرة عليهم . من الممكن ان يظهر ايضاً في اللامبالاة وعدم الاحترام او عدم الاعتبار والازدراء بالآخرين . انه بالواقع بطالة ويأس موجهان هذه المرة للآخرين . وهو يكمل الانتحار الروحي بقتل روحي (اي للآخرين) .

وبالنهاية الكلام البطال . من جميع الكائنات المخلوقة ، الانسان وحده قد

اعطي موهبة النطق . ويرى الآباء جميعهم فيها « ختم » الصورة الالهيـة نفسه في الانسان لأن الله نفسه قد استعلن كـ « كلمة » (يوحنا ١:١) وبما انها الموهبة العظمى فهي بالوقت نفسه الخطر الاعظم . وبمـا انها التعبير الاصيل للانسان ، اداة تحقيق ذاته ، هي للسبب نفسه اداة سقوطه وتحطيم ذاتـه ، اداة الخيانـة والخطيئة . الكلمة تخلص والكلمة تقتل ، الكلمة توحي والكلمة تسمم ، انهـا اداة الحقيقة واداة الكذب الشيطاني . انها تمتلك في الوقت نفسه قوة هائـلة ايجابية وسلبية . انها تخلق بالواقع ، ايجابيـاً ام سلبياً . عندما تنحرف عن اصلها الالهي وعن غايتها ، تصبح الكلمة باطلة ، تافهة . وعندها تقوّي البطالة والقنوط وحب الرئاسة وتجعل من الحياة جحيماً ، وتصبح قوة الخطيئة بنفسها.

هذه الاشياء الاربعة هي سلبيات التوبة . انها الحواجز التي علينا ان نزيلها. ولكن الله وحده قادر ان يزيلها . ولذا القسم الاول من صلاة الصيـام هذا الصراخ من اعماق اليأس الانساني (ايها الرب وسيد حيـاتي) وبعدها تنتقل الصلاة الى غايات التوبة الايجابية وهي ايضاً اربعة .

العفة . اذا لم نقصر هذا التعبير ، كما نفعل ذلك مراراً مخطئين ، على معناه الجنسي ، فهو نقيض البطالة الايجابي . المعنى الحقيقي والدقيق للكلمة اليونانية والروسية هو « كلـّي – المعقولية » . البطالة هي قبل كل شيء تبديد وتحطيم لطاقتنا ولرؤيانا ، هي عجزنا عن رؤية الكلي والشامل . اذا نقيضها بالضبط هو **الكليّة** . اذا كنا نعني عـادة بالعفة ، الفضيلة المناقضة للفسوق الجنسي فهو آت من ان انفصام طبيعتنا لا يظهر بوضوح اكثر مما في الشهوة الجنسية – غربة الجسد عن حياة الروح ومراقبتها . المسيح يعيد الكلية فينا اذ يعيد الينا السلـّم الحقيقي للقيم بارجاعنا الى الله .

فالثمار الاولى لهذه الكلية او العفة هي **التواضع** ، وقد تحدثنا عنه سابقاً . انه قبل كل شيء انتصار الحقيقة فينا ومحو كل كذب ، الكذب الذي نعيش فيه

عادة . **التواضع** وحده جدير بالحقيقة ، برؤية الاشياء وقبولها كما هي وبالتالي رؤية جلال الله وطيبته ومحبته في كل شيء . ولهـــذا قيل ان الله يعطي نعمته المتواضع ويقاوم المتكبر .

العفة والتواضع يتبعها تلقائياً **الصبر** . الانسان « الطبيعي » او الساقط » هو انسان غير صبور لانه اعمى في نفسه ، يسرع بالحكم على الآخرين وادانتهم . وهو اذ يمتلك معرفة بالاشياء ناقصة ومشوّهة يقيس كل الامـــور حسب ذوقه وافكاره ، غير مبال بأي انسان الاّ نفسه . يريد من الحياة ان تكون ناجحة هنا وفي الدقيقة نفسها . الصبر هو بالفعل فضيلة الهيـــة . الله صبور ليس لانه « متسامح » ، متساهل ، بل لانهُ يرى اعماق ما هو موجـــود ، لان حقائق الامور مكشوفة لديه بينما نحن بسبب عمانا لا نراهـا . فبقدر ما نقترب من الله بقدر ما نكون صبورين وبقدر ما نعكس ذلك الاحـــترام اللامحدود لجميع المخلوقات ، وهذه هي الصفة الخاصة بالله .

وبالنهاية ثمار كل مجهود وكل نمو ، ثمـــار الفضائل كلها وقمتها هي **المحبة** ، المحبة التي قلنا سابقاً ان الله وحده قادر ان يمنحها ، الموهبة التي هي غـــاية كل تهيئة وممارسة روحية .

كل هذا تجمعه وتلخّصه الطلبة الختامية للصلاة الصياميـة التي فيها نطلب من الله « هب لي ان اعرف ذنوبي وعيوبي والاّ ادين اخوتي » . بالنهاية هناك خطر واحد الا وهو الكبرياء. الكبرياء هو نبع كل شر ، وكل شر هو كبرياء . انه لا يكفيني ان ارى عيوبي لانه حتى هـــذه الفضيلة الظاهرة قد تتحول الى كبرياء . والكتابات الروحية ملأى بالتحذيرات من الاشكال الدقيقة للتقوى المشوّهة التي تقود بالواقع الى تكبّر شيطاني حقيقي تحت ستار التواضع واتهام الذات . ولكن عندما نرى « عيوبنا » و « لا ندين اخوتنا » او بكلمة اخرى عندما تكون العفة والتواضع والصبر والمحبة واحداً فينا ، ساعتها فقط يمكننا ان نحطم الكبرياء .

بعد كل طلبة من الصلاة نسجد سجدة . وهـــذه السجدات ليست محددة فقط بصلاة افرام السرياني ولكنها واحدة من المعالم المميزة للعبـادة الصيامية . ولكن هنا يتضح معناها بافضل طريقة ممكنة . فالكنيسة ، في جهادنا الطويل والصعب لاستعادة حياتنا الروحيـــة ، لا تفصل النفس عن الجسد . الانسان بكليته قـــد سقط وابتعد عن الله ولذا عليها ان تخلّص الانسان بكليته . والانسان بكليته عليه ان يعود . ومأساة الخطيئة تكمن هنا بالضبط بانتصار الجسد ـ اي ما هو حيواني وشهواني وغير عاقل فينا ـ على ما هو روحي والهي. ولكن الجســـد ممجّد ، الجسد مقـــدس ، مقدس لدرجـــة ان الله نفسه « صار جسداً » . فالخلاص والتوبة ليسا اذاً احتقاراً للجسد او اهمالاً له ، بل اعادة الجسد الى دوره الحقيقي كتعبير عن الروح وحياتهـــا ، كهيكل للنفس البشرية التي لا تثمّن . والنسك المسيحي هو حرب من اجل الجسد وليس ضده. لهذا السبب الانسان بكليته ، روحـاً وجسداً ، يتوب . الجسد يشترك بصلاة النفس كما تصلّي النفس بواسطـــة الجسد . فالسجود هو العلامـــة المدرحية (المادية ـ الروحية) للتوبة والتواضع ، للعبـــادة والطاعة ، وهو بالتالي الطقس الصيامي بالامتياز .

٣ ـــ الكتاب المقدس

صلاة الكنيسة هي دائماً كتابية اي ان لغتها وصورها ورموزها تابعة من الكتاب المقدس . اذا كان الكتاب المقدس يحوي الاعلان الالهي للانسان ، فهو بالوقت نفسه جواب الانسان الموحى لهذا الاعلان وهو بالتـــالي نموذج لصلاة الانسان وتسبيحه وعبادته ومحتواها . مثـلاً كتبت المزامير منذ آلاف السنين وبالرغم من ذلك عندما يريـد الانسان ان يعبّر عن توبته ، عن اهتزاز كيانه بكليته امام تحدّي الرحمة الالهية ، فهو يجد التعابير الوحيدة المناسبة في مزمور التوبة الذي يبدأ « ارحمني يا الله كعظيم رحمتك » . كل موقف ممكن للانسان

امام الله او العالم او الانسان الآخر ، كل موقف من الفرح الغامر لحضور الله حتى اعماق يأس الانسان في منفاه وخطيئته وتغرّبه عن ذاته قـــد وجدت تعبيرها الكامل في هذا الكتاب الوحيـد الذي بقي ، لهذا السبب ، المغذي اليـــومي للكنيسة واداة لعبادتها وبنائها الذاتي .

اثناء الصوم الكبير يتضاعف التشديد على البعـــد الكتابي في الصلوات . وبامكان المرء ان يقـول ان الاربعين يوماً الصيامية هي ، بطريقة ما ، عـــودة الكنيسة الى حالة العهد القديم الروحية ، الى زمان ما قبل المسيح ، زمن التوبة والتوقع ، زمن « تاريخ الخلاص » ، المتجه نحو تمامـه في المسيح . وهذه العودة ضرورية لانه بالرغم من اننا ننتمي لزمان « بعد المسيح » ونعرفه وقد « اعتمدنا به » ، نبتعد دائماً عن الحياة الجديدة التي اخذناها منـه وهذا يعني السقوط من جديد في الزمن « القديم » . فالكنيسة هي من جهة في بيتها (at home) لانها « نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله الآب وشركة الروح القـدس » . ومن جهة اخرى هي « في طريقها » ، في مسيرتها ، الطويلة والصعبة ، نحو انجاز كل شيء في الله وعودة المسيح وانتهاء كل زمان .

الصوم الكبير هو الموسم الذي فيه يتحقق هذا المظهر الثـــاني للكنيسة ، لحياتها كتوقع ومسيرة . وهنـــا بالضبط يأخذ العهد القـــديم ملء معناه ليس ككتاب نبوءات قد تحققت ، بل ككتاب الانسان والخليقة كلها « في طريقها» نحو ملكوت الله .

مبدآن اساسيان يحكمان استعمال العهد القـــديم في العبادة الصومية : وهما القراءة المزدوجة من المزامير ومن الكتب الثلاثة : التكوين واشعياء والامثال .

لقد احتلت المزامير دائماً مركزاً فريداً واساسياً في العبـــادة المسيحية . والكنيسة لاترى فيها التعبير الافضل والاكمل عن صلاة الانسان وتوبته وعبادته وتسبيحه فحسب ، بل ايضاً الأيقونة الكلامية للمسيح وللكنيسة ، وكشفاً

ضمن الكشف الالهي . وبالنسبة للآباء ، يقول واحد من شراح مؤلفاتهم « فقط المسيح وكنيسته يصليان ويبكيان ويتكلمان من خلال هذا الكتاب (اي المزامير) . منذ البدء والمزامير تشكل اساس الصلاة في الكنيسة ، « لغتها الطبيعية » . فهي تستعمل في العبادة اولاً « كمزامير ثابتة » اي كقسم دائم من كل خدمة يومية : في الغروب (المزمور ١٠٤) وفي السحر المزامير الستة (٣، ٣٨، ٦٣، ٨٨، ١٠٣، ١٤٣) والمزامير ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ . وفي الساعات بمجموعة من ثلاثة مزامير في كل ساعة ... الخ . ومن المزامير اختيرت قطع البروكيمنن والاستيخونات لترتيل هللويا لجميع الاعياد والتذكارات من السنة الطقسية . وبالنهاية المزامير كلها مقسمة الى ٢٠ قسماً او كاتسمات ترنم بكاملها اسبوعياً في الغروب والسحر . وهذا الاستعمال الأخير للمزامير يتضاعف اثناء الصوم . فالمزامير ترنم مرتين في كل اسبوع من الصوم واقسام منها تدخل في الساعات الثالثة والسادسة .

ان القراءات من التكوين واشعياء والامثال ، ترجع باصلها الى الوقت الذي كان فيه الصوم ما يزال موسم الكنيسة الرئيسي للتحضير للمعمودية ، والذي كانت فيه ايضاً الخدم الصيامية **تعليمية** اساساً ، اي مخصّصة لتعليم الموعوظين . وكل من هذه الكتب الثلاثة يناسب واحدة من الملامح الاساسية للعهد القديم : تاريخ اعمال الله في **الخليقة** ، النبوة والتعاليم الاخلاقية . فكتاب التكوين ، كما كان ، يعطينا اطار ايمان الكنيسة . كما يحوي قصة الخليقة والسقوط وبالنهاية الوعد وبداية الخلاص بواسطة عهد الله مع شعبه المختار . انه يعطينا الابعاد الاساسية الثلاثة لايمان الكنيسة بالله كخالق وديّان ومخلّص. كما يكشف جوهر الفهم المسيحي للانسان كمخلوق على « صورة الله ومثاله » كمبتعد عن الله وكباق موضوعاً لمحبة الله واهتمامه وخلاصه . كما يكشف ايضاً معنى التاريخ **كتاريخ الخلاص** الذي يقود للمسيح ويكتمل به . كما يعلن سرّ الكنيسة من خلال المشاهد والوقائع لشعب الله والفلك والعهد . اما اشعياء فهو

اعظم الانبياء وقراءة كتابه اثناء الصوم تعني ان يُكشف مرة اخرى سرّ الخلاص العظيم من خلال آلام المسيح وتضحياته . واخيراً كتاب الامثال الذي هو خلاصة التعليم الاخلاقي للعهد القديم ، كما انه خلاصة القانون الاخلاقي والحكمة ، والذي بدون قبوله لا يستطيع المرء ان يفهم غربته عن الله حتى انه بالتالي ليعجز عن سماع البشرى السارة بالغفران من خلال النعمة والمحبة .

تقرأ يومياً فصول من هذه الكتب الثلاثة اثناء الصوم من الاثنين حتى الجمعة : التكوين والامثال في الغروب واشعياء في الساعة السادسة . وبالرغم من ان الصوم بَطَـلَ ان يكون الموسم التعليمي للكنيسة ، تحتفظ هذه القراءات بغايتها الاساسية ومعناها الكامل . ان ايماننا المسيحي يحتاج لهذه العودة السنوية للاصول والاسس الكتابية لانه لا يمكن ان تكون نهاية لنموّنا في فهم الكشف الالهي . فالكتاب المقدس ليس مجموعة من « الفرضيات » العقائدية لتقبل او تحفظ مرة واحدة ولكنه صوت الله الحي الذي يحدثنا ايضاً وايضاً ، والذي يدخلنا اعمق دائماً الى الغنى الذي لا يفرغ لحكمته ومحبته . ولا مأساة اعظم في كنيستنا من جهل اعضائها الكامل تقريباً للكتاب المقدس . والاسوأ من هذا هو لا مبالاتنا العملية تجاهه . فالذي كان بالنسبة للآباء والقديسين الفرح اللانهائي والنمو العقلي والروحي ، هو اليوم بالنسبة لكثير من الارثوذكسيين نص قديم بلا معنى لحياتهم . ولكننا على الرجاء انه عندما نكتشف معنى الصوم وروحه ، نكتشف ايضاً الكتاب المقدس كغذاء روحي حقيقي وكشركة مع الله .

٤ ـــ التريوديـــين

للصوم كتابه الخاص الا وهو كتاب **التريوديون** . وهو يحوي ترانيم وقراءات كتابية لكل يوم من الموسم الصيامي ابتداء من احد الفريسي والعشار الى غروب السبت العظيم . وقد تألفت ترانيم التريوديون بمعظمها بعد الاختفاء العملي

للموعوظين (اي معمودية البالغين وضرورة تهيئتهم لها) . ولذا نجد انها تشدّد على التوبة وليس على المعمودية . ولكن الذين يعرفون ويفهمون جمال هـــذه الترانيم الصيامية وعمقها هم للاسف قليلون اليوم . والجهل بالتريوديون هو السبب الاساسي للتحول البطيء في فهم الصوم وادراك غايته . هذا التحول الذي جعل الصوم يصير رويداً رويداً مجرد مجموعة من « فرائض » غذائيـة . لقـد ضاعت روحية الصوم اليوم ولا طريق آخر لاسترجاعهـا الا بالاصغاء المتفهم والواعي لترانيم التريوديون. انه لهام جـداً مثلا ترداد هذه الترانيم التي تحذرنا بالضبط من فهم « شكلي » للصوم و « مرائي » . فمنذ اربعاء مرفع الجبن نسمع :

« اذا صمتِ عن الاغذية ولم تتنقي من الآلام (الاهواء).
فباطلاً تفرحين بترك المآكل . لأن الصيـــام لم يصر
علّة لتقويمك ، فانك تمقتين من الله ككاذبة .وتضاهين
الشياطـــين الارديـاء الذين لا يأكلون بالكلية . فلا
تخطئي اذاً وتدنسي الصيـــام ببقائك في الخطيئة ،
بل كوني واقفة مع المخلّص المصلوب ، لا بل مصلوبة
مع الذي صلب من اجلك هاتفة اليه . اذكرني يا رب
متى اتيت في ملكوتك » .

القطعـة الاولى من ابوستيخن سحر اربعاء مرفع الجبن

كما نسمع ايضاً في اربعاء الاسبوع الرابـع :

« ان الصانعين الفضائل سرياً . والمنتظرين المجـــازاة
الروحانية ، لا يشهرونها في وسط الشوارع . لكنهم
بالحري يبدونها من داخل القلوب . وللناظر ما يصير
روحياً من الجميع يمنحنا جزاء الامساك. فلنتمم الصيام
غير معبسين وجوهنا . بل مصلين في خزائن نفوسنا .
ونصرخ بغير فتور : يا ابانا الذي في السموات نتوسل
اليك الاتدخلنا في التجارب. ولكن نجّنا من الشرير».

القطعة الثانية من غروب الاربعاء للاسبوع الرابـع

تشدد الترانيم خـــلال الصوم كله على التعارض بين تواضع العشار وتشامخ الفريسي . كما انها تدين الرياء . فما هو اذاً الصوم الحقيقى ؟ يجيب التريوديون : انه بالدرجة الاولى التطهير الداخلي :

« لنصم ايها المؤمنون من الفخاخ المفسدة . ومن الاهواء المضرة كي نحصل على الحياة من الصليب الالهي ونعود مع اللص الشكور الى منزلنا الابوي » .

انها عودة الى الحب والنضال ضد « الحياة المهشمة » ، ضد البغض والحسد والظـــلم :

«اذا ما صمنا يا اخوة جسدانياً. فلنصم ايضاً روحانياً. ونحل جميع وثاقات الظـلم ونفك عقـد المعامـــلات الاقتسارية ونمزق الصكوك الجائرة . ونمنح الجيـاع خبزاً . ونولج مساكين لا سقف لهم الى منازلنا . لكي ننال من المسيح الاله الرحمة العظمى .

القطعة الاولى من غروب الاربعاء
للاسبوع الاول من الصوم

« هلم ايها المؤمنون . لنعمل في النـــور اعمال الله . ونسلك سلوكاً شريفاً في نهار مقتلعين من ذواتنـا كل صك جـــائر نحو القريب . ولا نضع له عثرة شك . ولنغادر ملاذ الجسد . ونمّ مواهب النفس ونمنـــح المحتاجـين خبزاً . ونتقدم الى المسيح بتوبة هاتفـين : يا الهنا ارحمنا » .

غروب الجمعة من الاسبوع الاول

واذ نصغي لهذه الترانيم الا ندرك كم نحن قريبون من مفهوم الفريسي التافه للصوم ، هذا المفهوم الذي يسود اليوم ، فننظر للصوم بطريقة سلبيـة ، كأمر « غير مناسب » ؟ واذا كنا نقبله « ونتألم خلاله » نحسب آلياً اننا حصلنا على « استحقاقات » عند الله واننا اتممنا واجباتنا نحوه وتصالحنا معه . كم من الناس يقبلون هذه الفكرة ان الصيام هو زمن الامتناع عن الامور الصالحة بحد ذاتها ؟ بالنسبة لكاتبي ترانيم الصيام ، الصوم هو بالضبط بعكس ما نفكر ، هو العودة للحياة « الطبيعيـــة » ، لذاك الصوم الذي كسره آدم وحواء مدخلين بذلك الآلام والموت الى العالم .

ولذا نحن نستقبل الصوم كربيع روحي ، كزمان فرح ونور :

« لقد وافى نبع الصيام ، نور التوبة ... »
« لنقبل يا اخوة بشائر الصـوم بفرح . لأن آدم جدنا
الاول لو حفظ الصوم لما حرمنا من الفردوس ... »

« ان اوان الصيـــام ، هو اوان الفرح . فلنرنم بفرح
يا اخوة ، بطهارة مشعة ، بمحبة صافيـــة ، ممتلئين
بالصلاة المتلألئة والاعمال الصالحة . . »

فقط اولئك الذين « يفرحون بالرب » والذين يعتبرون ان غاية الرغبـــة والفرح في وجودهم هو المسيح وملكوته ، بامكانهم ان يقبلوا بفرح النضال ضد الشر والخطيئة ويشاركوا في النصر النهائي . ولهذا السبب الشهداء وحدهم من القديسين هم الذين نستدعيهم ونمدحهم بترانيم خاصة كل يوم في الصوم ، لأن الشهداء هم بالضبط اولئك الذين فضلوا المسيح على كل شيء آخر في هذا العالم ، حتى على الحياة نفسها ، الذين فرحوا بالرب الى درجة استطاعوا فيها ان يقولوا مع القديس اغناطيوس الانطـــاكي وهو يحتضر « الآن بدأت احيا ... » . انهم الشهود لملكوت الله لان الذين رؤوه وذاقوه هم وحدهم قادرون على هـذا

التسليم الكلي . انهم رفاقنا في الصوم الذين يشجعوننا في نضالنــــا وجهادنا كي ينتصر الروحي والسماوي والأزلي فينا .

« أيهـــا الشهداء المتألمون ، انكم بنظر واحد وبرجاء واحد ،
وجدتم الموت طريقاً للحياة ...
اذ لبستم درع الايمان
وتسلحتم بعلامة الصليب
كنتم جنوداً مستحقين لله ،
وقاومتم مراراً التعذيبات
وسحقتم خداع الشياطين
فانتصرتم واستحقيتم الاكليل .
فتشفعوا الى الرب ان يخلص نفوسنا .

خلال الاربعين يوماً المقياس النهائي لجميع الترانيم الصيامية هو :
صليب المسيح وقيامته وفرح الفصح المشع . فهذه تذكرنا دائماً ، مهما كان الطريق ضيقاً وصعباً ، انه بالنهاية يقود لمائدة المسيح في ملكوتـه . توقع فرح القيامة وتذوقها مسبقاً يتخللان الصوم كله ، وهما المحرك الحقيقي للجهاد الصيامي.

راغبين الشركة في الفصح الالهي ، فلنتابع التغلب
على الشرير بالصيام ...
سنشارك في فصح المسيح الالهي .

التريودي ، هذا الكتاب المجهول والمهمل ، حبذا لو ندرك ان فيه نستطيع ان نكتشف روح الصوم، ان نكتشف الارثوذكسية نفسها برؤيتها للحيـــاة والموت والابدية .

الفصل الثالث

قداس القدسات السابق تقديسها

(البروجزماني)

١ ـ معنيا الشركة (المناولة)

من أهم القواعد الطقسية التي تخص الصوم ، هي القاعـــدة التي تمنع اقامة القداس الالهي في ايام الاسبوع اثنـــاء الصوم . وتأتي اهميتها من كونها مفتاح فهم التقليد الطقسي وهي ميزة خاصة بالارثوذكسية . والتيبكون صريح جداً بهذا الخصوص: في الصوم لاتقام خدمة القداس الالهي من الاثنين حتى الجمعة ولا في اي ظرف من الظروف ما عدا عيد البشارة اذا وقع في واحد من هذه الايام. ولكن ايام الاربعاء والجمعة تقام خدمة مناولة ـ خدمة شركة ـ وهي خدمـة مسائية تسمى خدمة القدسات السابق تقديسها .

ولكن معنى هذه القاعدة قد نسي جذرياً في كثير من الرعايا وخاصة التي كانت عرضة للتأثيرات اللاتينية والغربية . نسيت القاعدة واستبدلت بقداديس يومية « خاصة » و « تذكارية » تقام اثنـــاء الصوم وفي الامكنة التي حافظت عليها لم يقم جهد لتجاوز التطبيق الشكلي للفروض ، لفهم معناهـــا الروحي الذي يشكل المنطق العميق للصوم . من المهم اذاً ان نشرح بتفصيل اكثر معنى هذه القاعده التي تتجاوز اطار للصوم وتنير التقليد الارثوذكسي بكامله .

بكلمة واحدة نحن هنا امام تطبيق واحد من أهم المبـــادىء الليتورجية الاساسية : عدم توافق الافخارستيا مع الصوم . وكي يفهم المرء هــذا المبدأ عليه ان يفهم الافخارستيا اولاً وبالتالي الصــوم . في التقليد الارثوذكسي ، الذي يختلف في هــذا الامر جذرياً عن لاهوت الافخارستيا وطقوسهـا في الكثلكة ، حافظت الافخارستيا دائماً على طابعهـا الفرح والتعييدي . انهـا بالدرجة الاولى سرّ مجيء المسيح وحضوره بين تلاميذه وهي اذاً بمعنى حقيقي عميق، الاحتفال بقيامته . بالواقع ان مجيء المسيح وحضوره في الافخارستيا هما بالنسبة للكنيسة «البرهان» على قيامته. ان الفرح الذي غمر قلوب التلاميذ عندما اعلن الرب ذاته لهم في كسر الخبز (لوقا ٢٤ : ١٣ ـ ٢٥) ، وهم في طريقهم الى عمواص ، هو نبع المعرفة الكنسية الاختباري والوجودي لقيامة الرب . لم ير احد القيامة الفعلية ورغم ذلك آمن التلاميذ بها ، ليس لأن واحداً علمهم هذا الايمان بل لأنهم رأووا الرب الناهض عندما حضر بينهم والابواب مغلقــة وشاركهم طعامهم .

والافخارستيا ما تزال المجيء والحضور نفسهما ، الفرح واضطراب القـلب نفسها، والمعرفة الفائقة العقل والمطلقة. ان الرب الناهض يكشف ذاته «في كسر الخبز»وهذا الفرح عظيم لدرجة ، حتى ان يوم الافخارستيا بالنسبة للكنيسة الاولى ليس واحداً من الايام ولكنه **يوم الرب** ، يوم من الآن فوق الزمن ، لأن ملكوت الله حاضر منذ الآن في الافخارستيا . وفي العشاء الاخير أخبر الرب نفسه تلاميذه انه وهبهم الملكوت كي « يأكلوا ويشربوا على مائدته في ملكوته». وبما ان الافخارستيا هي حضور الرب الناهض الذي صعد الى السماء وجلس عن يمين الأب، فهي اذاً المشاركة في الملكوت الذي هو «فرح وسلام في الروح القدس». والمناولة هي « طعام الأبدية » و « الخبز السماوي » . والاقتراب من المناولة هو بالحقيقة الصعـــود الى السماوات . الافخارستيا هي اذاً عيد الكنيسة (العيد بالامتياز) او بالاحرى الكنيسة كعيد ، كابتهاج بحضور المسيح وكمشاركة في الفرح الابدي لملكوت الله . وكل مرة تقيم فيها الكنيسة الافخارستيا ، تكون

في بيتها وفي وطنها اي في السماء . انهـــا تصعد الى حيث صعد المسيح لتجعلنا نأكل ونشرب على مائدة المسيح في ملكوته ... » وهكذا يفهم المرء اذاً لماذا لا تتفق الافخارستيا مـــع الصوم . لأن الصوم ـ كما سنرى لا حقـاً ـ التعبير الاساسي للكنيسة في حال ارتحال وسفر ، اي في طريقها الى الملكوت السماوي . وقـــد قال المسيح « ابنـــاء الملكوت لا يصومون ما دام العريس معهم » (متى ٩ : ١٥) .

ولكن قد يسأل البعض لماذا ما تزال المناولة تُعطى ايام الصوم في خدمـــة القدسات السابق تقديسها ؟ الا يتعارض هذا مع المبـدأ الذي ذكرناه سابقـاً ؟ للاجابة على هذا السؤال علينا ان نأخذ بعين الاعتبار الوجـه الثاني للمناولة في المفهوم الارثوذكسي ومعناها كنبع لحياتنا الروحية والقوة الداعمة لها . واذا كانت المناولة هي اكتمال كل جهودنا والغاية التي نصبو اليها والفرح العظيم لحياتنا المسيحية ، فهي ايضاً بالضرورة بداية جهادنا الروحي ونبعه ، الموهبة الالهيـة التي تؤهلنـا ان نعرف ونشتاق ونتطلع لشركة اكمل في النهـار الذي لا يغرب لملكوت الله . لأن الملكوت بالرغم من انه قـد أتى فهو آت ايضـاً في الكنيسة وسيأتي بملئه في آخر الايام عندما يملأ الله الكل بنفسه. اننا نعرف هذا الملكوت ونشارك فيه مسبقاً . نشارك **الآن** في الملكوت الذي **سيأتي** . اننا نرى ونذوق مسبقاً مجده وغبطته ونحن ما زلنا على الارض . وهكذا كل وجودنا على الارض ما هو الا رحلة طويلة ، وغالباً صعبة ، نحو يوم الرب الاخير . ونحن في هـذه الرحلة نحتاج الى سند ومساعـدة ، الى قوة وتعزية ، لأن « رئيس هذا العالم » لم يستسلم بعد ، بل على العكس اذ يدرك ان المسيح قد هزمه ، يخوض ضد الله معركة اخيرة وعنيفة ينتزع منه قدر ما يستطيع من الناس . المعركة صعبـة و « ابواب الجحيم » قوية ولذا حدثنا المسيح عن « البـاب الضيق » وعن الذين بامكانهم ان يتبعوه وهم قلة . وفي معركتنا هذه ، جسد الرب ودمه هما بالضبط عوننا الرئيسي ، انهما « الغذاء الجوهري » الذي يحفظ حياتنا الروحية بالرغـم

من جميع التجارب والمخاطر ، والذي يجعلنا من اتبـــاع المسيح . وهكذا بعد الاشتراك بالمناولة نصلّي :

« ... هب ان تكون هي (قدساتك) لي انا ايضـاً لشفاء النفس والجسد ودحض كل مضاد ولانارة عيني قلبي ولسلامة قواي النفسانية ، ولايمـــان غير مخذول ولمحبة بلا رياء وللامتلاء من الحكمة ولاقتناء وصاياك ولازدياد نعمتك الالهية والتأهل لملكوتك ... »

« ... لا تحرقني يا جابلي بل اعبر متخللاً مفـــاصل اعضائي وجميع اوصالي وكليتيّ وقلبي ... حتى اذا صرت بيتاً لك بدخولي في شركتك . يهرب مني كل شرير وكل وسواس وهوى هربه من نار ... » .

واذا كان الصوم يعني تكثيف هذا النضال ، فالامر عائد الى اننا ، حسب الانجيل ، وجهاً لوجه امام الشيطان وجميع قواته . ولذا نحن بالضبط بحاجـة خاصة لمساعدة هذه **النار الالهية** (المناولة) وقوتها . ومن هنا جاءت المناولة الصيامية الخاصة في البروجزماني ، اي القدســـات التي تقدست في افخارستيا الاحد السابق وحفظت على المذبح لتوزع في مساء الاربعاء والجمعة .

لاتقام الافخارستيا في ايام الاسبوع الصيامية لان اقامتها هي حركة مستمرة من الفرح . ولكن هناك الحضور المستمر لثار هذه الافخارستيـا في الكنيسة . وكما ان المسيح « المنظور » قد صعد الى السماء ، فهو حاضر في العـــالم بطريقة غير منظورة . وكما ان الفصح يقام مرة واحدة في السنة فان اشعته تضيء حياة الكنيسة كلها . كذلك ملكوت الله الذي سيأتي فهو منذ الآن حاضر بيننا ، وهذا ما يصح ايضاً بالنسبة للافخارستيا . بما انها سرّ الملكوت وحضوره ، وبما انها عيد الكنيسة ، فالافخارستيا لا تتوافق مع الصوم ولا تقام اثناءه . وبمـا

انها نعمة الملكوت وقوته الفاعلة في العالم والتي تمدنا بالغذاء الجوهري، وسلاحنا في النضال فهي في المركز الرئيسي في الصوم وهي بالفعل المن السماوي الذي يحفظنا احياء في رحلتنا في صحراء الصوم .

٢ – معنيا الصوم

وهنا يأتي السؤال الثاني : اذا كانت الافخارستيا لا تتوافق مع الصوم فلماذا تقام ايضاً في سبوت الصوم وآحاده دون ان تكسر الصوم ؟ ان قوانين الكنيسة هنا يبدو انها تناقض نفسها . وكما ان هناك بعضاً يمنعون الصيام في الآحاد ، هناك ايضاً آخرون يمنعون كسر الصيام في اي يوم من ايام الصوم . ان هذا التناقض ظاهري فقط لأن القاعدتين اللتين تظهران ان الواحدة ترفض الاخرى، يدلاّن بالواقع على معنيين مختلفين للصوم . واذا فهمنا هذا ، اكتشفنا **فلسفة الصوم** الارثوذكسية ، تلك الفلسفة الاساسية لكل جهادنا الروحي .

هناك بالواقع طريقتان او شكلان للصيام مرتكزان على الكتاب المقدس والتقليد ويتوافقان مع وضعين او حالتين مختلفتين للانسان . الاولى ويمكن ان يسميها المرء **الصوم الكلي** لانه يقوم على امتناع كلّي عن الشراب والطعام . والثانية الصوم **النسكي** لانه يقوم اساساً على الامتناع عن بعض الاطعمة وعلى التخفيض الجوهري للنظام الطعامي . يقتصر الصوم الكلي على فترة قصيرة ويتحدد عادة بيوم او بجزء منه . وقد فُهم منذ بدء المسيحية كحالة **تحضير** او توقع اي تلك الحالة الروحية المتركزة على ما سيأتي . والجوع الجسدي هنا يقابله ذلك التوقع الروحي لما سيتم ، ذلك الانفتاح الكياني للفرح الآتي . ولذا نجد في التقليد الطقسي للكنيسة هذا الصوم الكلي في التهيئة الاخيرة لعيد عظيم او لحدث روحي حاسم . نجده مثلاً في غروب الميلاد والظهور الالهي . ونجده قبل كل شيء في الصيام الافخارستي – اي الذي يسبق المناولة – وهي الطريقة

الأساسية لتهيئتنا للعشاء الماسياني على مائدة المسيح في ملكوتـه . يسبق هـذا الصوم الكلي الافخارستيا دائمـاً وقد يتغير في مدتـه . ولكنه بالنسبة للكنيسة يشكل شرطاً جوهرياً لاقتبال المنـاولة . كثيرون اساؤوا فهم هـذه القاعـدة معتبرينها وصفة قديمة جوفاء ومتسائلـين لماذا المعـدة الفارغة ضرورية لاقتبال المناولة . فنحن عندما نحوّل هذه القاعـدة الى مجرد قاعـدة فيزيولوجية فهي بالضبط تفقد معناهـا . ولذا لا نتعجب اذا كانت الكنيسة الكاثوليكية التي استبدلت ، منذ زمن بعيد ، الفهـم الروحي للصيام بفهم قانوني ونظامي (مثلاً الحل من الصيام وكأن الله هو الذي يحتاج للصيـام وليس الانسان)، قد لغت الصوم الافخارستي (اي الصوم الذي يسبق المناولة). ان هذا الصوم الكلي بمعناه الحقيقي هو التعبير الاساسي لوقع التهيئة ونجازها ، ذلك الوقع الذي بـه تعيش الكنيسة لانهـا في الوقت نفسه توقـّع المسيح في « هذا العالم » ودخول « هذا العالم » الى « العالم الذي سيأتي » . وهنا يمكننا ان نضيف ان لهـذا الصوم الكلي اسماً خاصاً في الكنيسة الاولى مـأخوذ من التعابير العسكرية وهو التأهب . وهي تعني حامية في وضع تأهب واستعداد . الكنيسة تبقى « ساهرة » لانهـا تتوقع العريس وهي تنتظره بتأهب وفرح . وهكذا فالصوم الكلي ليس صيـام اعضاء الكنيسة وحسب بل هو الكنيسة نفسها كصائمة ، كمرتقبة للمسيح الذي يـأتي اليها في الافخارستيـا والذي سيأتي بمجد في آخر الازمنة .

اما الصيام النسكي فله الى حد بعيد معنى آخر . هنا الغاية من الصيـام هي تحرير الانسان من عبوديـة الجسد ، من الاستسلام للشهوة الـتي هي النتيجة المأساوية لخطيئة الانسان الاصلية . ان الانسان بجهده البطيء والصبور فقـط يكتشف ان « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » ويستعيد في ذاته أولوية الروح. ان هذا الصوم هو بالضرورة وبطبيعته جهد طويل ومستمر . ان عامل الزمن جوهري لان استئصال مرض الانسان العام والمشترك وشفاءه منه يتطلب وقتاً

وجهداً وخاصة بعد ان بدأ يعتبره حالته « الطبيعية » . ان فن الصيام النسكي قد تنقّى واكتمل ضمن التقليد الرهباني ومن ثم قبلته الكنيسة جمعاء . انه تطبيق كلمات المسيح على الانسان ، ان الارواح الشريرة التي تستعبد لا يمكن ان تُغلب « الا بالصلاة والصوم » . كما انه متأصل في ما عمله المسيح نفسه عندما صام اربعين يوماً وبعدها جابه الشيطان وجهاً لوجه . وبهذه المواجهة قلب المسيح استسلام الانسان « للخبز وحده » بادئاً تحرير الانسان . وقد خصصت الكنيسة اربع فترات لهذا الصيام النسكي : قبل الفصح والميلاد وعيد القديسين بطرس وبولس ورقاد السيدة . انها تدعونا اربع مرات في السنة لنطهر ذواتنا ونحررها بالصوم المقدس من سلطان الجسد . وفي كل مرة يتوقف نجاح العلاج بالضبط على مدى تطبيقنا لبعض القواعد الاساسية التي اهمها «عدم كسر الصيام» واستمراره في الزمن .

ان هذا التمييز بين طريقتي الصوم هو الذي يساعدنا كي نفهم التناقض الظاهر بين القوانين التي تنظم الصوم . فالقانون الذي يمنع الصيام يوم الاحد يعني حرفياً ان الصوم في هذا اليوم قد « كسر » اولاً بالافخارستيا نفسها التي تكمّل توقعنا وثانياً بما انها غاية كل صيام فهي ايضاً نهايته . يعني الاحد ، الذي هو يوم الرب ، يتجاوز الصوم كما يتجاوز الزمن . او بكلمة اخرى تعني ان الاحد الذي هو يوم الملكوت لا ينتمي الى هذا الزمن (اي زمن هذا العالم) الذي يعني رحلة او سفراً والذي يعبّر عنه الصوم بالضبط . وهكذا يبقى الاحد يوماً غير صيامي بل يوم الفرح الروحي . ولكن ان كسرت الافخارستيا الصوم الكلي فهذا لا يعني انها كسرت الصوم النسكي الذي يعني بطبيعته ، كما شرحنا سابقاً ، استمرار الجهاد . وهذا يعني ان التنظيمات الطعامية التي تضبط الصوم النسكي تبقى قائمة في آحاد الصيام . وبكلمة اوضح اللحم والبيض ممنوعان وذلك فقط بسبب الطابع المدرحي للصيام النسكي ولأن الكنيسة تدرك انه كي يضبط الجسد عليه ان يخضع لنظام طويل وصبور من الامتناع . في روسيا مثلاً لم يأكل الرهبان

اللحم مطلقاً ، ولكن هذا لا يعني انهم صاموا في الفصح او في اي عيد عظيم . باستطاعة المرء ان يقول ان الصوم النسكي ، الى حد ما ، هو من طبيعة الحياة المسيحية ويجب على المسيحيين ان يحافظوا عليه . ولكن من المؤسف جداً ان يشيع اعتبار الفصح فرضاً لنأكل فيه ونشرب زيادة . انه تشويه كريه لروح الفصح . ومن الخطير ايضاً انه في بعض الكنائس يمتنع الناس عن المناولة في الفصح . حتى ان عظة يوحنا الذهبي الفم الفصحية « المائدة ملآنة فتمتعوا كلكم ، العجل سمين واف فلا يخرج احداً جائعاً » يمكن ان تفهم انها تقصد فقط موائد الفصح الثرية والفخمة . العيد هو حقيقة روحية واذا اردنا ان نحتفل بلياقة الفصح علينا ان ندرك انه كالصوم يتطلب رصانة وعمقاً روحياً.

يجب ان نفهم بوضوح اذاً انه لا تناقض بين الحاح الكنيسة بالمحافظة على الامتناع عن بعض الاطعمة في آحاد الصوم وبين ادانتها للصوم في يوم الافخارستيا. الواضح انه بالمحافظة على القاعدتين ، بالمحافظة على وقع الافخارستيا كتهيئة وانجاز وعلى الجهد المستمر « للاربعين يوماً الخلاصية » نستطيع ان نحقق الغاية الروحية من الصوم . كل هذا يقودنا للمركز الخاص الذي يحتله القداس البروجزماني في العبادة الصيامية .

٣ ــ المناولة المسائية

ان الطابع الاول والاساسي للقداس البروجزماني هو المناولة المسائية . من ناحية الشكل ، القداس هو خدمة غروب تتبعها المناولة . وفي مراحل تطورها الاولى كانت اقل أبّهة مما هي عليه اليوم وكان ارتباطها بصلاة الغروب اكثر وضوحاً . ومن هنا يأتي السؤال الاول حول طابع هذه الليتورجيا الغروبي (نسبة الى صلاة الغروب) . نحن نعرف ان فترة صيام كلي تسبق الافخارستيا في التقليد الارثوذكسي . وهذه القاعدة العامة تشرح لماذا ليس للافخارستيا

ساعة محددة خاصة بها، بخلاف باقي الخدم . فزمن الافخارستيا يتعلق بالدرجة الاولى بطبيعة اليوم الذي ستقام فيه. فمثلاً في الاعياد الكبيرة يطلب **التيبيكون** افخارستيا باكرية لأن صلاة الغروب تحل محل الصوم او التهيئة . اما في الاعياد الصغيرة التي لا تقام فيها صلاة الغروب، وتنقل الافخارستيا ، على الاقل نظرياً، لساعة متأخرة . ففي ايام الاسبوع يجب ان تقام عند الظهر . واخيراً في الايام التي يطلب فيها صوم دقيق او كامل طوال النهار ، تعطى المناولة ، «**الكاسرة**» للصوم ، في المساء . وبكل بساطة تعني هذه القاعدة المهملة للاسف في ايامنا او المنسية كلياً ان للافخارستيا التي هي دائماً نهاية التهيئة وتحقيق التوقع ، وقتاً خاصاً بها مرتبطاً بمدة الصيام الكلي . وهذا الصوم امّا ان يأخذ شكل سهرانة طوال الليل او انه يترك لحرية الشخص . وفي الصيام ، بما ان ايام الاربعاء والجمعة هي ايام صوم كامل ، تصبح خدمة المناولة ، التي هي اتمام هذا الصوم ونجازه ، خدمة مسائية . وينطبق المنطق نفسه على ليالي الميلاد والظهور التي هي ايام صوم كامل ولذا فالافخارستيا تقام بعد الغروب . واذا كانت ليلة هذه الاعياد تقع في السبت او الاحد اللذين هما في التقليد الارثوذكسي ايام افخارستيا ، يقدم الصوم الكلي الى يوم الجمعة. مثل آخر : اذا وقع عيد البشارة في ايام الصوم ، تقام الافخارستيا بعد الغروب. هذه القواعد التي تبدو لكثيرين قديمة وبلا فائدة اليوم ، تعبر بالحقيقة عن المبدأ الاساسي للروحانية الليتورجية الارثوذكسية : الافخارستيا هي دائماً نهاية التهيئة وتحقيق التوقع ، وبما ان ايام الصوم الكلي هي افضل تعبير للكنيسة كتهيئة فانها تكلل بمناولة مسائية .

في ايام الاربعاء والجمعة من الصيام ، تطلب الكنيسة امتناعاً كلياً عن الطعام حتى الغروب . وقد اختيرت هذه الايام كأيام مناسبة للمناولة في الصيام التي هي كما قلنا سابقاً الاسلحة الرئيسية في الجهاد الروحي الصيامي . فالايام التي يتكثف فيها الجهاد الروحي والجسدي ، تستنير بتوقع تناول جسد المسيح ودمه . وهذا التوقع يدعمنا في جهادنا الروحي والجسدي، ويجعل هذا الجهاد يقصد فرح المناولة المسائية « رفعت عيني الى الجبال ، من حيث يأتي عوني » .

وفي ضوء المجابهة المقبلة مع المسيح، يصبح يومي الذي اقضيه بالمشاغل العادية، يوماً جديداً، والامور الصغيرة والتافهة التي تملأ حياتي اليومية، وقد اعتدت كثيراً عليها حتى اني ما عدت اهتم بها، تأخذ معنى جديداً. كل كلمة اقولها وكل عمل انجزه وكل فكرة تمر في خاطري تصبح مهمة وفريدة وهي اما تكون منسجمة مع انتظاري للمسيح او متناقضة معه. الزمن نفسه الذي نضيعه عادة بسهولة ينكشف بمعناه الاصيل فيكون اما زمن خلاص او زمن دينونة وتصبح حياتنا كلها كما صنعها مجيء المسيح الى العالم اما صعوداً اليه او ابتعاداً عنه الى الظلمة والخراب. هنا في ايام المناولة المسائية يكمن المعنى الاصيل للصوم بطريقة افضل وأكمل من اي مكان آخر. كما ينكشف معنى الحياة المسيحية بكاملها في المسيح. الحياة كلها، الزمن كله، التاريخ والكون نفسه تصبح توقاً وتهيئة ورجاء وصعوداً. المسيح قد اتى، والملكوت سيأتي ايضاً. في هذا العالم نستطيع فقط ان نذوق محبة الملكوت وفرحه، ولكننا ككنيسة حول مائدة المسيح نترك هذا العالم بالروح ونتأمل في اعماق قلوبنا نور المسيح غير المخلوق وبهاءه. يعطى هذا التذوق لنا حتى نحب الملكوت ونشتهيه ونتوق الى شركة اعمق مع الله « في نهاره الذي لا يغرب » وفي كل مرة بعدما نتذوق فرح الملكوت وسلامه نعود الى هذا العالم ونجد انفسنا مرة ثانية في الطريق الطويل والضيق. من العيد نعود الى حياة الصوم، حياة التهيئة والانتظار. انتظار غروب هذا العالم الذي يجعلنا مشاركين « بنور الله البهي ومجده » البداية التي لا نهاية لها.

٤ ــ ترتيب الخدمة

في الكنيسة الاولى، حيث كان المسيحيون قلة ومختبرين جداً، قامت عادة توزيع القدسات (اي جسد المسيح ودمه) على المؤمنين في نهاية افخارستيا الاحد ليتناول منها كل فرد يومياً في بيته. وهكذا كانت الافخارستيا المشتركة والفرحة ليوم الرب تمتد للزمن كله وللحياة كلها. ولكن هذه العادة توقفت

عندما تكاثر اعضاء الكنيسة وتحولت المسيحية الى ديانة جماهيرية . وهذا جعل بالضرورة الحماس الروحي الاول فاتراً كما جعـل السلطات الكنسية تأخـذ الاحتياطات ضد سوء استعمال القدسات . اما في الغرب فقد قاد هذا الامر الى ظهور الافخارستيا اليوميـة - وهذا واحد من المعالم للتقليـد الطقسي الغربي وتقواه ، وهو في الوقت نفسـه اصل تغيير اساسي في فهم الافخارستيا نفسه . وعندما تحرم الافخارستيا من طابعها التقليدي وتبطل ان تكون عيد الكنيسة، ساعتها تصبح جزءاً مكملاً من الدور اليومي ويفتح الباب لما يسمى« القداديس » الخاصة التي تغير الامور الاخرى كلها في العبادة وتفسدها رويداً رويداً . اما في الشرق فقـد بقي الفهم الاساسي للافخارستيا يتمركز على الملكوت والفرح ، كما لم تصبح الافخارستيا ، على الاقل نظرياً ، جزءاً من الدور اليومي . ان القيـام بها هو دائماً عيد ويومها يأخذ دائماً روحانيـة يوم الرب . ولذا هي لا تتفق مع الصوم ولا تقام في ايام الصوم الاسبوعية . وهكذا وعندما توقفت المناولةاليومية في البيت ، لم تستبدل في الشرق بالافخارستيا اليومية بل اعطت شكلاً جديداً للمناولة من القدسات التي جرى تقديسها يوم الاحد او في خدمة تقليـدية اخرى (اي جرت في عيد) ومن الممكن جداً انه في البداية لم تكن خدمة القدسات السابق تقديسها (البروجزماني) محددة فقط بالصوم الكبير بل كانت معروفة ايضاً في جميع مواسم الصيام الكنسية . ولكن فيما بعد عندما كثرت الاعياد - كبيرة وصغيرة - وتكاثر فيها اقامة الافخارستيا ، اصبح البروجزماني طابعاً لتيورجياً للصوم الكبير . وتحت تأثير روحانية الطقس الصيامي ، تأثـير ذلك « الحزن البهي » الذي تحدثنا عنـه، اخذ البروجزماني رويداً رويداً تلك الابهة وذلك الجمال الفريد اللذين جعلاها القمة الروحية للعبادة الصيامية .

تبدأ خدمة البروجزماني بصلاة الغروب بالرغم من ان افتتاحيتها افخارستية « مباركة هي مملكة الاب والابن والروح القدس » - كما توضع الخدمة كلهـا في اطار الملكوت الذي هو الاطار الروحي للصوم . ثم يبـدأ مزمور الغروب

(مزمور ١٠٤) « باركي يا نفسي الرب .. » وتتبعه الطلبة السلامية الكبرى وقراءات من المزامير المخصصة لكل يوم من ايام الصيام . وتشمل هذه القراءات المزامير ١٢٠ - ١٣٤ وتسمى اناشيد الدرجات ، لانها كانت ترنم على درجات الهيكل في اورشليم تزييحاً ، كما يرنم الشعب مجتمعاً للعبادة ومعداً ذاته لملاقاة ربه : « فرحت بالقائلين لي الى بيت الرب الهنا نحن ذاهبون » (مزمور١٢٢:١) « ها منذ الآن باركوا الرب يا جميع عبيد الرب . الواقفين في بيت الرب بالليالي في ديار الهنا . ارفعوا ايديكم الى الاقداس وباركوا الرب . ليباركك الرب من صهيون ، صانع السماء والارض » (مزمور ١٣٤) .

اثناء قراءة هذه المزامير ينقل الكاهن القدسات التي تقدست في الاحد السابق من المائدة (مائدة الهيكل » الى المذبح وهناك يسكب الماء والخمر ويغطي القرابين كما يفعل عادة في تهيئة الذبيحة . ومن الملاحظ ان الكاهن اثناء هذا العمل لا يقول شيئاً سوى « بصلوات آبائنا القديسين » لان الصلوات المعتادة قد قيلت في افخارستيا الاحد .

بعد الايصودون وترنيمة « ايها النور البهي .. » تقرأ قراءتان من كتاب التكوين والامثال . وفي نهاية القراءة الاولى يحدث طقس خاص يعيدنا الى الايام التي كان فيها الصوم متمركزاً على تهيئة الموعوظين للمعمودية . وهذا الطقس هو ان الكاهن يمسك شمعة مضيئة ومبخرة مدلاة من تحتها ويلتفت الى الشعب راسماً بها صليباً وقائلاً « نور المسيح مضيء للجميع » . فالشمعة هي الرمز الليتورجي للمسيح الذي هو نور العالم . واثناء القراءة من العهد القديم ، توضع الشمعة على الانجيل عانية بذلك ان جميع النبوءات تمت بالمسيح الذي فتح اذهان تلاميذه « ليفهموا الكتب » . يقود العهد القديم للمسيح كما يقود الصوم الى نور المعمودية . وهذا النور يوحد الموعوظين مع المسيح ويفتح اذهانهم لفهم تعليمه .

بعد القراءة الثانية من العهد القديم نرنم بتطويل الآية الثانية من المزمور

(١٤١) « لتستقم صلاتي كالبخور امامك .. » ، هذا المزمور قد رتلناه قبل الايصودون (يا رب اليك صرخت) فما معنى هذا الترتيل الثاني ؟ من الممكن انه يعود للفترة الاولى من تطور القداس البروجزماني قبل ان يتعقد ويأخذ شكله الاحتفالي الحالي . في تلك الفترة كان توزيع المناولة يحصل في صلاة الغروب ومن الممكن ان هذا المقطع (لتستقم صلاتي) كان يرتل عند المناولة . اما اليوم فهو يشكل مدخلاً انسحاقياً للجزء الثاني من الخدمة وهو القداس البروجزماني بحد ذاته .

يبدأ الجزء الثاني بقداس الموعوظين اي بطلبات وصلوات خاصة من اجل الذين يستعدون للمعمودية . وفي منتصف الصوم اي يوم الاربعاء في الاسبوع الرابع تضاف صلوات وتضرّعات خاصة من اجل « المستعدين للاستنارة » . مرة اخرى نلاحظ التشديد على الطابع الاساسي للصوم كتهيئة للمعمودية والفصح .

وبعد خروج الموعظين ، يبدأ قداس المؤمنين بصلاتين ، في الاولى نسأل من اجل تطهير النفس والجسد والحواس :

> « ايها الأله العظيم المسبّح ، انت اعتق جميع حواسنا من موت الاهواء واجعل اعيننا تبتعد عن كل منظر خبيث ، ومسامعنا لا تطرقها اقوال باطلة والسنتنا فلتكن سالمة عن الكلام غير اللائق ، وطهّر يا رب شفاهنا المسبّحة اياك واجعل ايدينا بعيدة عن الاعمال الذميمة وفاعلة ما يرضيك فقط ، وحصّن كل اعضائنا واذهاننا بنعمتك » .

وفي الثانية نتهيأ لدخول القدسات :

« ها ان جسده الطاهر ودمه المحيي يمران عابرين في هذه
الساعة وهما مزمعان ان يوضعا على هذه المائدة السرية
محفوفين بجمع غفير من الجنـود السماوية غير المنظورة .
فهبنا يا رب ان نتناولهما غير مدانـين لكي تستنير بهما
حدقتا ذهننا فنصير بني النور والنهار » .

ثم تأتي اعظم لحظة في الخدمة كلها وهي نقل القدسات من المذبح الى المائدة. هذا النقل، او هذا الدخول، يشبه ظاهرياً الايصودون الكبير (دورة الجسد) في قداس الذهبي الفم . امـا من حيث المعنى الروحي فهو مختلف بالكلية . في قداس الذهبي الفم نحن امام دورة التقدمة ، الكنيسة تقدم حياتهـا ، حيـاة اعضائها وبالواقع حياة الخليقة كلها كذبيحة لله ، كاحداث جديد لذبيحة المسيح الواحدة والكاملة . وهي اذ تذكر المسيح ، تذكر جميع الذين دعاهم من اجـل الفداء والخلاص . اما في القداس البروجزماني فليس هناك تقدمة ولا ذبيحة ولا افخارستيا ولا تقديس، بل اعلان سر حضور المسيح في كنيسته .

من المفيد الاشارة هنا الى ان التقليد الليتورجي الارثوذكسي يختلف عـن الطقس اللاتيني اذ لا عبادة للقدسات خارج المناولة. ولكن الاحتفاظ بالقدسات كـ « ذخيرة » لمناولة المرضى والمشرفين على الموت ، تقليد واضح لم يشك فيه في الكنيسة الارثوذكسية . لقد ذكرنا سابقاً ان الكنيسة الاولى عرفت المنـاولة الخاصة اي ان يتناول المرء في بيته . اذاً نحن عندنا الحضور الدائم للقدسـات والغياب الكلي لعبادتها . والكنيسة الارثوذكسية باحتفاظها بهذين الموقفين لم تقع في خطر العقلانية الاسرارية الغربية . فالغربيون ، مدفوعين برغبة التأكيد ضد البروتستنت ـ على موضوعية « حضور المسيح الحقيقي » في القرابين المقدسة ، قد فضلوا العبـادة على المناولة . وهكذا فتحوا الباب لانحراف روحي خطير جداً في الغاية الحقيقية للافخارستيا وفي الكنيسة نفسها . لان الغاية من الكنيسة ومن اسرارها ليس هو تقديس اجزاء المادة ومقابلتها بالاجزاء غير المقدسة . غاية

الكنيسة على العكس ان تجعل حياة الانسان شركة مع الله ، معرفة له وصعوداً نحو الملكوت . والقرابين المقدسة هي واسطة هذه الشركة ، طعام هذه الحياة الجديدة ولكنها ليست غاية بحد ذاتها . لأن ملكوت الله ليس « طعاماً اوشراباً بل فرح وسلام بالروح القدس » . فكما ان الطعام في هذا العالم يحقق غايته فقط عندما يهضم ويتحول الى حياة كذلك حياة العالم الذي سيأتي تعطى لنا بواسطة اشتراكنا « بالغذاء الابدي ». الكنيسة الارثوذكسية تتحاشى دائماً كل عبادة للقدسات خارج المناولة لان العبادة الحقيقية فقط هي اذ نتناول جسد المسيح ودمه . « نتصرف في هذا العالم كما تصرف هو ». اما البروتستنت فنتيجة خوفهم من اي فهم سحري مالوا «لروحنة» السر الى درجة انهم انكروا حضور المسيح ودمه خارج فعل المناولة . هنا ايضاً تُعيد الكنيسة الارثوذكسية التوازن الحقيقي بعادة حفظها للقرابين المقدسة . تُعطى القدسات للمناولة ولكن حقيقة المناولة تتوقف على حقيقة القرابين . والكنيسة لا تنظّر حول طريقة حضور المسيح في القرابين . وهي تمنع استعمالها في اية طريقة اخرى غير المناولة . فهي لا تعرف القرابين خارج المناولة ولكنها تؤمن ايماناً راسخاً انه كما ان الملكوت الذي سيأتي هو حاضر الآن في وسطنا وكما ان المسيح الذي صعد الى السموات وجلس على يمين الاب هو ايضاً معنا الى منتهى الدهر كذلك تؤمن ان واسطة الشركة مع المسيح وملكوته ، ان طعام الابدية ، حاضر معنا دائماً في الكنيسة.

وهذا الشرح اللاهوتي يعيدنا للقداس البروجزماني و « ظهور » القدسات السابق تقديسها الذي يشكل قمة القداس. وقد تطور هذا « الايصودن الكبير» من ضرورة نقل القدسات التي كانت تحفظ ليس في الهيكل ولكن في مكان خاص حتى احياناً خارج الكنيسة . وسيأخذ هذا النقل بالطبع جلالاً عظيماً لأنه يعبر ليتورجياً عن حضور المسيح وانتهاء يوم طويل من الصوم والصلاة والترقب ومجيء العون والتعزية والفرح الذين انتظرناهم .

« الآن قوات السموات يخدمون معنا بحال غير منظور

لأنه هو ذا ملك المجد يمر عابراً . ها هي الضحية
السرية المكملة تزيح . فلنتقدم بايمان وشوق لنصير
مشاركين الحياة الابدية . هللويا » .

وتوضع القدسات على المائدة ونتهيأ نحن للمناولة سائلين الرب :

« اعتقنا نحن (خادم السر) وشعبك المؤمن من كل
نجاسة ، وقدّس نفوسنا واجسادنا كلنا بتقديس غير
منتزع حتى اننا نتناول هذه القدسات الالهية بضمير
نقي ووجه غير خاز وقلب مستنير ونحيا بها ونتحد
بالمسيح نفسه الهنا الحق الذي قال : من يأكل جسدي
ويشرب دمي يثبت فيّ وانا فيه ، واذ يسكن كلمتك
يا رب ويتردد فينا نصير هيكلاً لروحك الكلي القدس
الواجب السجود له ناجين من كل حيلة شيطانية ..
ونحظى بالخيرات التي وعدتنا بها مع جميع قديسيك الذين
ارضوك منذ الدهر » .

ونحن اذ نصلي صلاة الرب يسوع المسيح نفسها ، التي هي قمة التهيئة للمناولة
فهذا يعني اننا قبلنا ان يكون المسيح فكرنا وان تكون صلاته لابيه صلاتنا
وكذلك ارادته ورغبته حياتنا . ثم تبدأ المناولة بينما يرنم المؤمنون ترنيمة
المناولة : « ذوقوا وانظروا ما اطيب الرب » .

وعند نهاية الخدمة يطلب منا ان نخرج بسلام . ثم نتلو صلاة الختم التي تلخص
معنى هذه الخدمة ، معنى المناولة المسائية وعلاقتها بجهادنا الصيامي :

« ايها السيد الضابط الكل يا من ابدعت البرايا كلها
بحكمة من عنايتك التي لا توصف وبكثرة خيريتك

> اوصلتنا الى هذه الايام الكلية الوقـار لتنقية النفوس والاجساد وللامساك عن الاهواء ولرجاء القيامة. يامن سلمت خادمك موسى الالواح المكتوبة منـك بواسطة صومه الاربعين يوماً، أهّلنا نحن ايضاً ايها الصالح ان نجاهد الجهاد الحسن ونقطع ميدان الصيام ونحفظ الايمان غير منقسم، ونرض رؤوس التنانــين غير المنظورة ونظهر غالبين الخطيئة ونبلغ السجود للقيامة المقدسة بلا دينونة ».

واذ نحن منطلقون خارج الكنيسة قد يكون الظلام سائداً، والليل الذي سندخل اليه ونحيا فيه ونصبر ونجاهد قد يكون طويلاً. ولكن النور الذي نظرناه في القداس ينـــيرنا. والملكوت الذي لا يكشف حضوره شيء في هذا العالم قد اعطى لنا سراً، وفرحه وسلامه يرافقاننا اذ نحن نستعد لمتابعة صيامنا.

الفصل الرابع

الرحلة الصيامية

١ ــ البداية : القانون الكبير

من المهم جداً ان نعود الآن الى فكرة الصوم وخبرته كرحلة روحية غايتها ان تنقلنا من حالة روحية الى اخرى . كثيرون من المسيحيين اليوم ، يجهلون كما قلنا سابقاً ، غاية الصوم ويعتبرونه موسماً يتوجب عليهم فيه فقط ان يتمموا فروضهم الدينية ويتناولوا مرة في السنة ويمتنعوا عن بعض الاطعمة لفترة يأتي بعدها الفصح ويزيل كل مانع . ويشارك كثير من الكهنة العلمانيين في هذه الفكرة المبسطة عن الصوم وهكذا يختفي روح الصوم الحقيقي من الحياة. ولذا كان من الملحّ جداً استعادة الوجه الحقيقي للصوم وروحانيته وهذا لا يتم الاّ بفهم اصيل للطقس الصيامي وتركيبه .

نجد في بدء الصوم قانون اندراوس الكريتي الذي هو كالاشارة الموسيقيةالتي تبدأ المعزوفة الموسيقية بكاملها . وهو يقسم الى اربعة اقسام تقرأ في صلاة النوم في الايام الاربعة الاولى من الصوم ويمكن ان نصفه بأفضل طريقة كنحيب توبة يظهر لنا مدى الخطيئة وعمقها ويهزالنفس باليأس والتوبةوالرجاء. ويحبك القديس اندراوس الموضوعات الكتابية الكبرى مع الاعتراف بالخطيئة والتوبة بطريقة فنية رائعة : آدم وحواء ، الجنة والسقوط ، البطاركة ابراهيم واسحق ويعقوب ، ونوح والطوفان ، داوود ، ارض الموعد ، وبالنهاية المسيح

وكنيسته . ويكشف احداث التاريخ الخلاصي كأنها حوادث **حياتي** ، واعمال الله الماضية تبتغيني وتبغي خلاصي، ومأساة الخيانة والخطيئة **كمأساتي الشخصية**، وهكذا تظهر لي حياتي كجزء من النضال الشامل والعظيم بين الله وقوى الظلمة الثائرة ضده .

يبدأ القانون باشارة شخصية عميقة فيقول :

« ايها المسيح من اين ابتديء انوح على افعال عمري الشقي ، وايّما ابتداء اضعه للمناحة الحاضرة . لكن بما انك متحنن . هبني صفح الزلات » .

من الاودية الاولى

وتنكشف خطاياي الواحدة تلوى الاخرى بارتباطها العميق مع مأساة الانسان بعلاقته مع الله . ان قصة سقوط الانسان هي قصتي :

« لقد شابهت بالمعصية آدم اول الجبلة . فعرفت ذاتي متعرياً من الله ومن الملك والنعيم الابدي بسبب خطاياي » .

من الاودية الاولى في يوم الاثنين

لقد اضعت جميع المواهب الالهية :

« لقد سوّدت جمال نفسي بلذات الشهوة . وصيّرت جميع عقلي تراباً بالكلية . لقد مزقت الآن حلتي الاولى التي نسجها لي الخالق بدءاً . ومن ثم حصلت طريحاً عارياً » .

من الاودية الثانية يوم الاثنين

وهكذا لأربع ليالٍ تحكي لنـــا اوديات القانون التسعة ايضاً وايضاً القصة الروحية للعالم التي هي بالوقت نفسه قصتي انا. وتتحداني بأحداث الماضي واعماله الحاسمة والازلية بمعناها وقوتها . وذلـك لأن كل نفس بشرية ـ فريدة ونسيجة وحدها ـ تواجه اليوم كما في الماضي المأساة نفسها والاختيارات نفسها وتكشف الحقائق الاخيرة ذاتها . الامثال الكتابية هى اكثر من توريات او تشبيهات كما يظن كثيرون . ولذا هم بالتالي يعتبرون هذا القانون مصطنعاً ومثقـــلاً بأسماء واحداث تافهة . انهم يقولون لماذا يذكر قايين وهابيل ، داود وسليمان بـدل ان يقول ببساطة « قد اخطأت » . ما لا يفهمه هؤلاء هو بالضبط كلمة خطيئة . ولهذه الكلمة ، في التقليد الكتابي المسيحي ، معنى عميـق لا يستطيع الانسان المعاصر ان يفهمه . وهذا ما يجعل اعترافه شيئاً مختلفـــاً بالكلية عن الاعتراف المسيحي الحقيقي . ان الحضارة التي نعيش فيها والتي تطبع رأينا في العالم تنفي بالواقع مفهوم الخطيئة . فاذا كانت الخطيئة قبـل كل شيء ، سقوط الانسان من مرتفع عال جداً ورفضاً لدعوته العليا ، فهل هذا يعني شيئاً بالنســـبة لحضارة تتجاهل وتنكر كل ارتفاع وسمو ، وتنكر تلـك الدعوة وتعرّف الانسان ليس من فوق بل من تحت ؟ حضارة وان كانت لا تنكر الله علناً ، تنكره عملياً لانها مادية من رأسها حتى اخمص قدميها وتنظر الى حيـــاة الانسان من وجهة مادية وتتجاهل دعوته العلوية ؟ تنظر الى الخطيئة و كأنها بالدرجة الاولى ضعف طبيعي ناتج عادة عن عدم انسجام يعـــود لاصول اجتماعية يمكننا ان نزيلها بتنظيم اقتصادي واجتماعي افضل. ولهذا السبب عندما يعترف الانسان المعاصر بخطيئته فهو لا يندم ولا يتوب . فهو حسبما يفهم الديانة ، اما يعدّد تعدياته الشكلية على قواعد شكلية او يشارك المعترف بمشاكله متوقعاً من الدين علاجاً شافياً يجعـــله سعيداً من جديد ومنسجماً مع مجتمعه . في كلا الحالين نحن لسنا امام التوبة التي تهز كيان الانسان الذي يعتبر نفسه مخلوقاً على صورة الله ومثاله والذي يدرك انه خان هذه الصورة ودنّسها ورفضها في حياته . التوبة هي هذا الندم الصاعد من اعماق الانسان وتلك الرغبة بالعودة الى الله والتسليم بمحبته ورحمتـه . ولهذا

السبب لا يكفي ان نقول « قـد اخطأت » . يصبح الاعتراف فعالاً وذا معنى عندما نفهم الخطيئة ونختبرها بكل عمقها وحزنها .

وهذه هي بالضبط غاية القانون الكبير، انه يكشف الخطيئة لنـــا ويقودنا بالتالي للتوبة . وهو يكشف لنا الخطيئة ليس بتعريفات وتعدادات بـل بتأمل عميق لقصة الكتاب المقدس التي هي بالواقـع قصة الخطيئة والتوبة والمسامحة . وهذا التأمل ينقلنا لحضارة روحية مختلفـة تتحدانا بوجهة نظر مختلفة كليـــاً للانسان وحياته وغاياته ودوافعه . انها تعيـــد الينا الاطار الروحي الاساسي الذي من خلاله تصبح التوبة ممكنة . مثلاً عندما نسمع :

> « يا يسوع ، انني لم اشابه عدل هابيل . ولم اقـدم لك قط قرابين مقبـولة . ولا افعالاً الهية لائقة بالله . ولا ضحية طاهرة . ولا سيرة غير مذمومة » .
>
> من الاودية الاولى ـ يوم الثلاثاء

نحن نعرف ان قصة الذبيحة الالهية الاولى ، المذكورة باختصار في الكتاب المقدس ، تكشف لنا شيئاً جوهرياً عن حياتنا نحن ، عن الانسان نفسه . كما نعرف ان الخطيئة هي بالدرجة الاولى رفض الحياة كتقدمة ، كذبيحة لله ، او بكلمة اخرى كاتجاه الهي . والخطيئة اذاً هي بالاصل انحراف حبنا عن غايتـه الاخيرة . هذا هو الكشف الذي يجعلنا نقـول شيئاً بعيداً بالعمق عن خبرتنا « المعاصرة » في الحياة ولكنه يصبح الآن صحيحاً وجودياً :

> « ايها الفاخوري ، لقـــد جبلتني من الطين جسداً ، ووضعت فيّ عظاماً ونسمة حيـــاة . لكن يا خالقي ويا منقذي وحاكمي اقبلني تائباً » .
>
> من الاودية الاولى ـ يوم الثلاثاء

واذا سمعنا القانون بانتباه فهو يتضمن معرفة عميقة للكتاب وقدرة فائقة على التأمل في ما يعنيه لنا في حياتنا . واذا كان كثيرون يجدونه باهتاً و«تافهاً» فهذا يعود الى ان ايمانهم ما عاد يتغذى من ينابيع الكتاب المقدس الذي هو بالنسبة للآباء نبع الايمان . علينا ان نتعلم مجدداً كيف ندخل الى العالم كما يكشفه الكتاب المقدس وكيف نعيش فيه . ولا طريقة افضل من طقوس الكنيسة للدخول الى هذاالعالم.انها لا تعطي التعاليم الكتابية وحسب ولكنها تكتشف بالضبط طريقة الحياة الكتابية .

هكذا فان الرحلة الصيامية تبدأ بعودة الى « نقطة البداية » ، الى الخليقة والسقوط والفداء ، الى العالم الذي كل شيء فيه يتحدث عن الله ويعكس مجده ، وكل حدث يعود اليه . والذي يجد فيه الانسان البعد الحقيقي لحياته ، وهو اذ يجده يتوب .

٢ ـ سبوت الصوم

يشبّه الآباء عادة الصوم لرحلة الاربعين سنة التي قضاها الشعب المختار في الصحراء . نحن نعرف من الكتاب المقدس ان الله كي يحفظ شعبه من اليأس وكي يكشف له تصميمه النهائي ، اجترح له الكثير من العجائب اثناء رحلته . وبالمقابل يشرح الآباء بالطريقة نفسها ايام الصوم الاربعيني .

بالرغم من ان الغاية الاخيرة للصوم هي الفصح ، هي ارض الموعد ، اي ملكوت الله ، فللصوم في نهاية كل اسبوع غاية او « **محطة** » خاصة ، مشاركة مسبقة بالغاية الاخيرة . انهما اليومان الافخارستيان ـ السبت والاحد ـ اللذان يحملان معنى خاصاً اثناء رحلة الصوم الروحية .

فلنبدأ بالسبت . ان وضعه الخاص في تقليدنا الطقسي وابعاده عن نمط

العبادة الصيامي يحتاج لبعض الشرح . من وجهة نظر « التيبيكون » ، التي عرضناها سابقاً ، ليس السبت يوم صيام بل هو يوم عيد لان الله نفسه جعله هكذا : « وبارك الله اليوم السابع وقدّسه لانه فيه استراح من جميع عمله الذي خلقه الله ليصنعه » (تك ٢ : ٣). ولا احد يستطيع ان يحل او يلغي ما اقامه الله . صحيح ان كثيراً من المسيحيين يفكرون ان تقديس السبت قد انتقل الى الاحد الذي اصبح اليوم المسيحي للراحة . ولكن لا شيء في الكتاب او التقليد يدعم هذا الرأي . بل على العكس فان التقليد القديم بكامله والآباء « يعدّون » الاحد كاليوم الاول او الثامن . وهكذا يشدّدون على اختلافه والى حد ما على تعارضه مع السبت الذي يبقى ابداً اليوم السابع ، اليوم الذي باركه الله وقدّسه . انه اليوم الذي رأى الله فيه ان ما خلقه « حسن جداً » . هذا هو معناه في العهد القديم ، المعنى الذي حافظ عليه المسيح نفسه وكنيسته ، وهذا يعني انه بالرغم من الخطيئة والسقوط يبقى العالم خلقاً الهياً حسناً ، ويحفظ تلك الطيبة الجوهرية التي سرّ الله بها « ورأى الله جميع ما صنعه فاذا هو حسن جداً » (تكوين ١ : ٣١) . ان نحفظ السبت كما عنى منذ البدء يعني ان الحياة يمكن ان تكون ذات معنى ، فرحة وخلاقة ، يمكن ان تكون ما ارادها الله ان تكون . والسبت ، يوم الراحة ، الذي فيه نستمتع بثمار عملنا ونشاطنا ، يبقى الى الابد البركة التي سكبها الله على العالم وحياته . هذا الاستمرار في الفهم المسيحي للسبت لا يشكل انقطاعاً مع مفهوم العهد القديم وحسب بل بالحري يتضمنه . لانه في المسيح لا يبقى اي شيء على حاله بل يتم ويسمو ويأخذ معنى جديداً . فاذا كان السبت في حقيقته الروحية الاخيره ، هو حضور الرأي الالهي « حسن جداً » في تركيب هذا العالم ، ففي المسيح يظهر « هذا العالم » نفسه في ضوء جديد ويجعله المسيح شيئاً جديداً . المسيح يسكب على الانسان ملكوت الله الذي « ليس من هذا العالم » . وهنا تكمن قمة « الانقطاع » التي تصنع بالنسبة للمسيحي « كل شيء جديداً » . ان الخير الموجود في العالم وفي كل شيء ، يُنظر اليه بمنظار كماله الاخير في الله ، بمنظار الملكوت الذي سيأتي والذي

سيعلن بكل مجده بعد انقضاء هذا الدهر . ولكن هذا العالم برفضه المسيح كشف ذاته انه في قبضة « رئيس هذا العالم » وانه « تحت حكم الشرير » (١ يوحنا ٥ : ١٩) . وطريق خلاصه ليس بالتطور والتحسن او « التقدم » ولكن بالصليب والموت والقيامة « ان ما تزرعه لا يحيا الا اذا مات » (١ كورنثوس ١٥ : ٣٦) . وهكذا يعيش المسيحي « **حياة مزدوجة** » ليس بمعنى ان يصنع اعماله « **الدنيوية** » بجانب « **الدينية** » بل بأن يجعل هذه الحياة بجملتها « تذوقاً مسبقاً » وتهيئة للملكوت ، وان يجعل من اعماله علامة وتثبيتاً ورجاء بالعالم الذي « **سيأتي** » . هذا هو معنى التناقض الظاهري في الانجيل : ملكوت الله هو « فيما بيننا » وهو ايضاً « سيأتي » . وما لم نكتشف هذا الملكوت « في قلب » الحياة ، لا نستطيع ان نرى فيه موضوع ذلك الحب والتوقع والرجاء الذي يدعونا الانجيل اليه . من الممكن ان يؤمن المرء بالثواب والعقاب بعد الموت ولكنه لا يستطيع ان يفهم ابداً فرح هذه الصلاة المسيحية وقوتها : ليأت ملكوتك . « تعال يا رب يسوع » والمسيح قد اتى ولذا نحن **ننتظره** . لقد دخل المسيح الزمن والحياة كي يصيرا معاً ممرّاً وعبوراً الى ملكوت السموات .

السبت ، يوم الخليقة ، يوم « هذا العالم » ، يصبح في المسيح يوم الرجاء ، اليوم الذي **يسبق** يوم الرب . وقد حدث هذا التحوّل للسبت في يوم السبت العظيم والمقدس والذي فيه اكمل المسيح « جميع اعماله » واستراح في القبر . وفي اليوم التالي ، « اليوم الاول بعد السبت » ، بزغت الحياة من القبر المحيي وسمعت حاملات الطيب البشرى « افرحوا » والتلاميذ لم « يؤمنوا بسبب الفرح والدهش » . وهكذا بدأ اليوم الاول من الخليقة الجديدة . والكنيسة تشارك في هذا اليوم وتدخل اليه في الاحد . ولكنها رغم ذلك ما تزال تعيش وترحل في زمن « هذا العالم » الذي اصبح بعمقه السري سبتاً لانه حسب بولس الرسول « انكم قد متّم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله . ومتى ظهر المسيح الذي هو حياتنا فأنتم ايضاً تظهرون حينئذ معه في المجد » (كولوسي ٣ : ٣ و ٤) .

كل هذا يشرح مكان السبت ، اليوم السابع ، الفريد في التقليد الطقسي . كما يشرح طابعه المزدوج كيوم صوم وكيوم موت . هو يوم صوم لانه في هـذا العالم وفي زمانه غلب المسيح الموت ودشن ملكوته . ولان تجسد المسيح وموته وقيامته هي اكتمال الخليقة التي سُرّ الله في البدء بها . وهو يوم موت لانه بموت المسيح ، مات العالم ، وان خلاصه وتجليه وكماله هي ما بعد القبر ، في « الدهر الآتي » . وجميع السبوت في السنة الطقسية تأخذ معناها من سبتين حاسمين هما : سبت قيامة العازر التي حصلت في هذا العالم وهي اعلان القيامة العامة وتأكيد لها ، وسبت الفصح العظيم والمقدس حيث يتحول الموت نفسه ويصبح « عبوراً » للحياة الجديدة وللخليقة الجديدة .

واثناء الصوم يكتسب معنى السبوت هـذا تشديداً خاصاً لان غاية الصوم هي بالضبط استعادة المعنى المسيحي للزمن كتهيئة ورحيل . فالمسيحي في هذا العالم هو « غريب » و « منفي » (١ بطرس ٢ : ١١) .

ترجع هذه السبوت الجهد الصيامي الى الانجاز المستقبلي وهكذا تعطي الصوم وقعه الخاص . فمن جهة ، السبت في الصوم هو يوم « افخارستي » تقام فيه خدمة يوحنا الذهبي الفم ، والافخارستيا تعني دائماً عيد . ولكن الطابع الخاص لهذا العيد هو ان يجعل الصوم مرجعاً له ، الصوم كرحلة وصبر وجهد . وهكذا يصبح « محطة » غايتها ان تجعلنا نتأمل بالغاية الاخيرة من هذه الرحلة . وهذا واضح على الخصوص في رسائل السبوت الصيامية المختارة من رسالة بولس الى العبرانيين التي فيها تتركز الاحداث على تاريخ الخلاص ، الرحلة ، الموعد والايمان بالامور الآتية .

نسمع في السبت الاول مقدمة الرسالة الجليلة (عبرانيين ٢ : ١ - ١٢) مع تأكيدها المهيب على الخلق والفداء وملكوت الله الازلي :

« ان الله الذي كلّم الآباء قديماً في الانبياء كلاماً متفرّق

الاجزاء مختلف الانواع، كلمنـا اخيراً في هذه الايام في
الابن الذي جعله وارثاً لكل الاشياء وبه انشأ الدهور
.. وانت ايها الرب انت وسنوك لن تفنى » .

نحن نعيش في هذه « الايام الاخيرة » ، ايام الجهد الاقصى . نحن ما زلنـا نعيش في « اليـوم » ولكن النهاية تقترب . فنسمع في السبت **الثاني** (عبرانيين ٣ : ١٢ – ١٦) :

« احذروا ايها الاخوة ان يكون في احدكم قلب شرير
ذو كفر فيرتدّ عن الله الحيّ. بل اعطوا انفسكم في كل
يوم **ما دام الوقت يدعى اليوم** .. فانا مشتركون في
المسيح ما دمنـــا حافظين بداءة القيام فيـه ثابتة الى
المنتهى » .

الجهاد صعب ، والتجارب والآلام هي الثمن الذي ندفعه لتكون لنا «ثروة افضل وابقى » (عبرانيين ١٠ : ٣٤) . لهذا السبب تشجعنا رســالة السبت **الثالث** (عبرانيين ١٠ : ٣٢ – ٣٨) :

« فلا تضيعوا اذن ثقتكم التي لها جزاء عظيم . فانكم
محتاجون الى الصـبر حتى اذا عملتم بمشيئة الله تحصلون
على الموعد، لانه في اقرب آن يأتي الآتي ولايبطيء...»

الايمان والرجاء والمحبة ، هي اسلحتنا في هذا العراك كما تؤكد رسالة السبت **الرابع** (عبرانيين ٦ : ٩ – ١٢) :

« .. لان الله ليس بظالم فينسى عملكم **والمحبة** الـــتي
ابديتموها لاجل اسمه في كونكم قد خدمتم ولا تزالون
تخدمون القديسين . وانمـا نروم ان كل واحد منكم

يبدي هذا الاستعداد بعينـــه لكمال يقين الرجاء الى
المنتهى . لئلا تكونوا متثاقلين بل تقتدوا بالذين يرثون
المواعد بايمانهم واناتهم » .

الوقت يقترب والتوقع يزداد شوقاً والثقة تصير اكثر فرحاً . هـذا هو وقع رسالة السبت الخامس (عبرانيين ٩ : ٢٤ ـ ٢٨)

« ... كذلك المسيح ُقرِّب مرة ليتحمـــل خطايا
الكثيرين وسيظهر ثانيـــة بـلا خطيئة لخلاص الذين
ينتظرونه » .

هذه هي الرسالة الاخيرة قبل سبت العازر ، اما اناجيل سبوت الصوم فهي مختارة من انجيل مرقس وهي تشكل سلسلة مترابطة . وفي السبت الاول نجد مفتاح معانيها ، المسيح ينقض الموانع المرائية للسبت اليهودي معلناً :

« ... ان السبت جعل لاجـل الانسان لا الانسان
لاجل السبت. فابن البشر اذن هو رب السبت ايضاً» .

(مرقس ٢ : ٢٣ ـ ٣ : ٥)

زمن جديد يقترب واعادة خلق الانسان قـــد بدأت . فلنسمع في السبت الثاني الابرص يقول للمسيح :

« ... ان شئت فأنت قـادر ان ُتطهرني ... فتحنَّن
عليه يسوع ومدَّ يده ولمسه وقال له قد شئت فاطهر» .

(مرقس ١ : ٣٥ ـ ٤٣)

وفي السبت الثالث ، نرى المسيح يكسر كل الحواجز :

« ... يأكل ويشرب مع العشارين والخطأة ... »
(مرقس ٢ : ١٤ – ١٧)

اما في السبت الرابع فعلى قول سفر التكوين « انه حسن جداً » يرد الانجيل بالاعلان الفرح :

« لقد أحسن في كل ما صنع ، جعل الصمّ يسمعون والبكم ينطقون » .
(مرقس ٧ : ٣١ – ٣٧)

واخيراً تجد هذه الامور قمتها في السبت الخامس في اعتراف بطرس الحاسم:
... انت هو المسيح ...
(مرقس ٨ : ٢٩)

وكل انسان مدعو ان يقبل المسيح ويدخل في الخليقة الجديدة .

قلنا سابقاً ان للسبوت معنى او بعداً ثانياً وهو الموت . فما عدا السبت الاول المخصص للقديس ثيودورس التيروني والخامس المخصص المديح ، السبوت الثلاثة الباقية هي ايام تذكار عام لجميع الذين « رقدوا بالرب على رجاء القيامة والحياة الابدية » . وهذا التذكار ، كما قلنا سابقاً ، يهيىء ويعلن سبت قيامة العازر والسبت العظيم والمقدس . وليس هذا التذكار « عملاً صالحاً » او عملاً محباً وحسب بل هو ايضاً اكتشاف جوهري لـ « هذا العالم » كعالم الموت وعالم يموت . في هذا العالم ، نحن محكوم علينا بالموت كما هو محكوم على العالم نفسه ، ولكن في المسيح قد تحطّم الموت من الداخل وقد فقد « شوكته » كما يقول بولس الرسول واصبح نفسه مدخلاً للحياة ، وللحياة الوفيرة . وبالنسبة لكل منا قد حصل هذا الدخول بموت المعمودية .

وهناك انحراف رهيب في التقوى الشعبية عن المعنى العميق للايمان المسيحي

جعل الموت من جديد اسود . وهذا يظهر في كثير من الامكنة بارتداء الثياب السوداء في المآتم والجنائز . علينا ان ندرك كمسيحيين ان اللون الذي يناسب الموت هو الابيض . والصلاة من اجل الميت ليست نحيباً . وهذا لا يظهر في مكان افضل مما يظهر في ارتباط ذكر الموت العام بالسبت عامة وبسبوت الصوم خاصة . فبسبب الخيانة والخطيئة اصبح يوم الخليقة البهيج يوم موت . والخليقة التي « اخضعت ذاتها للباطل » (رومية ٨ : ٢٠) ، اصبحت موتاً . ولكن المسيح اعاد بموته اليوم السابع ، وجعله يوم اعادة الخلق ، يوم تحطيم وغلبة لذلك الذي جعل هذا العالم انتصار الموت . والغاية الاخيرة للصوم هي ان يعيد فينا « التطلع الحار لاعلان ابناء الله » وهذا هو محتوى الايمان المسيحي والرجاء والمحبة . وبهذا الرجاء « نحن مخلّصون . والرجاء بأمور منظورة ليس رجاء لانه من يرجو ما ينظره ؟ ولكن اذا كنا نترجى ما لا نراه فنحن ننتظره بصبر .. » . ان النور المنبعث من سبت العازر والفرح السلامي للسبت العظيم والمقدس هما اللذان يشكلان المعنى الاصيل للموت المسيحي ولصلاتنا من اجل الاموات .

٣ ــ آحاد الصوم

لكل احد من آحاد الصوم موضوعان او معنيان . فمن جهة ينتمي كل احد الى دور تظهر فيه « جدلية » وقع الصيام وروحانيته . ومن جهة اخرى اخذ كل احد تقريباً ، خلال تطور الكنيسة التاريخي ، موضوعاً ثانياً . ففي الاحد الاول تعيّد الكنيسة لـ « انتصار الارثوذكسية » وهي ذكرى الانتصار ضد بدعة محطمي الايقونات واعادة تكريمها في القسطنطينية سنة ٨٤٣ . وارتباط هذا العيد بالصوم هو مجرد صدفة : « انتصار الارثوذكسية » الاول حصل في هذا الاحد المعين . والامر نفسه ينطبق على ذكرى القديس **غريغوريوس** بالاماس في الاحد الثاني من الصوم . فادانة اعدائه وتثبيت تعاليمه من قبل

الكنيسة في القرن ١٤ اعتبر انتصاراً ثانياً للارثوذكسية . ولهذا السبب خصص الاحد الثاني من الصوم لذكراه السنوية . وهذه التذكارات بالرغم من اهميتها وعمقها ، هي مستقلة عن الصوم وتخرج عن اطار هذا الكتاب . ولكن هناك تذكارات اخرى اكثرالتصاقاً بالصوم مثل تذكار القديس **يوحنا السلمي** فيالاحد **الرابع ومريم المصرية** في الاحد **الخامس**. فالكنيسة ترى فيهما نصيرَيْ النسك المسيحي ورافعي لوائه . يوحنا اعطى مبادىء النسك في كتاباته ومريم اعطتها في حياتها . وانه لواضح من ان الكنيسة وضعت ذكراهما في النصف الثاني من الصوم لتشجّع المؤمنين وتحثهم في نضالهم وجهادهم الروحي . وبما ان النسك ليس للذكرى فقط بل **للممارسة** ، وبما ان ذكرى هذين القديسين تهدف لبنائنا الروحي فسنخصص الفصل الاخير للصوم في حياتنا .

اما الموضوع الثاني لآحاد الصوم فنجده في اناجيل هذه الآحاد . وكي نفهم تتابعهم ، علينا ان نتذكر مرة ثانية الارتباط الاساسي بين الصوم والمعمودية ـ الصوم كتهيئة للمعمودية . وتشكل هذه الاناجيل جزءاً اساسياً من التعليم المسيحي الباكر ، وتشرح وتلخص تهيئة الموعوظين لسر المعمودية الفصحي . المعمودية هي الدخول للحياة الجديدة التي بدأها المسيح . وبالنسبة للموعوظين هذه الحياة الجديدة معلنة لهم فقط وموعودون بها وهم يقبلونها بالايمان . انهم يشبهون اناس العهد القديم الذين عاشوا بايمانهم بوعد لم يروا تحقيقه .

هذا هو موضوع الاحد **الاول** . فبعد ذكر ابرار العهد القديم ، تختم الرسالة (عبرانيين ١١ : ٢٤ – ٢٦ و ٣٢ – ٤٠ الى ١٢ : ٢) :

> « ... فهؤلاء كلهم المشهود لهم بالايمان لم يحصلوا على الموعد . لان الله دبّر لنا تدبيراً افضل وهو ان لا يُجعلوا كاملين بدوننا » .

ما هو هذا التدبير الافضل ؟ يعطينا انجيل الاحد الاول من الصوم الجواب (يوحنا ١ : ٤٣ - ٥١) :

« ... انك ستعاين اعظم من هذا ...
سترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون
على ابن البشر » .

وهذا يعني : انتم ايها الموعوظون ، انتم الذين تؤمنون بالمسيح ، انتم الذين تريدون المعمودية والذين تهيئون انفسكم للفصح ، سترون تدشين العهد الجديد ، واتمام الوعود جميعها واعلان ملكوت السموات ولكنكم سترونه فقط ان آمنتم وتبتم ، ان غيرتم قلوبكم وكانت عندكم الرغبة وقبلتم الجهاد . هذا ما تذكرنا اياه رسالة الاحد الثاني . (عبرانيين ١ : ١٠ - ٢ : ٣)

« ... فلذلك يجب علينا ان نواظب على ما سمعناه
مواظبة اشدّ لئلا يسرب من قلوبنا .. فكيف نفلت
نحن ان اهملنا خلاصاً عظيماً كهذا ؟ » .

ان صورة هذا الجهاد وتلك الرغبة نجدهما في انجيل الاحد الثاني (مرقس ٢ : ١ - ١٢) عند المخلع الذي انزلوه من السقف امام يسوع : « ... فلما رأى يسوع ايمانهم قال للمخلع : يا بني مغفورة لك خطاياك » .

وفي الاحد **الثالث** ، احد الصليب ، يظهر موضوع الصليب ويخبرنا الانجيلي مرقس (٨ : ٣٤ - ٩ : ١) :

« فانه ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه .
ام ماذا يعطي الانسان فداء عن نفسه ؟ » .

من هذا الاحد وصاعداً تبدأ الرسالة الى العبرانيين بكشفها لنا معنى ذبيحة

المسيح التي تدخلنا « الى داخل الحجاب » (عبرانيين ٦ : ١٩) اي الى قدس اقداس ملكوت الله ، (انظر الاحد الثالث عبرانيين ٤ : ١٤ ـ ٥ : ٦ ، الاحد الرابع ، عبرانيين ٦ : ١٣ ـ ٢٠ والاحد الخامس ، عبرانيين ٩ : ١١ ـ ١٤) ، بينما يعلن لنا انجيل مرقس آلام المسيح الطوعية :

« .. ان ابن البشر سيسلم الى ايدي الناس فيقتلونه » .
(مرقس ٩ : ١٧-٣١) الاحد الرابع. كما يعلن قيامته المجيدة.

« .. وفي الاحد الثالث يقوم » (مرقس ١٠ : ٣٢ - ٤٥) الاحد الخامس .

ان التعليم حول السرّ العظيم والتهيئة له يقتربان لنهايتهما . والساعة الحاسمة لدخول الانسان الى آلام المسيح والى قيامته تقترب .

في هذه الايام ، لم يعد الصوم تهيئة للموعوظين من اجل المعمودية . ولكن بالرغم من اننا معمدون وممسوحون اما زلنا موعوظين ؟ اما زلنا نعود الى هذه الحالة كل سنة ؟ ألا نبتعد ايضاً وايضاً عن هذا السرّ العظيم الذي اشتركنا فيه مرّة ؟ ألا نحتاج في حياتنا التي هي غربة مستمرة عن المسيح وملكوته ، لهذه العودة السنوية الى جذور ايماننا المسيحي ؟

٤ ـ منتصف الصوم : الصليب المقدس

يسمى الاحد الثالث من الصوم احد « اكرام الصليب » . في سهرانة ذلك اليوم وبعد المجدلية الكبرى، نخرج بالصليب في طواف جليل الى وسط الكنيسة ويبقى هناك الاسبوع كله ـ وبعد كل خدمة يقام طقس تكريم للصليب . انه لمن المهم جداً ان نذكر هنا ان موضوع الصليب الذي يهيمن على ترانيم ذلك الاحد ، موسع ليس بتعابير الآلام بل بتعابير الفرح والنصر . واكثر من هذا

ان « قانون » هذا الاحد مأخوذ من خدمة الفصح « اليوم يوم القيامة » لا بـل هو نفسه بعبارات مختلفة .

ومعنى هذا واضح جداً . نحن في منتصف الصوم . فمن جهة بـدأنا نشعر بوضوح اذا كنا صائمين جدياً بالتعب الجسدي والروحي وبعبء الجهاد وثقـله . ونحن بحاجة للمساعدة والتشجيع . ومن جهة اخرى بعد ان تحملنا كل هذا التعب وبعد ان تسلقنا الجبل الى هذه النقطة ، نبـدأ برؤية نهاية رحلتنا ورؤية اشعة الفصح تزداد بريقاً ولمعاناً . الصوم هو صَلْبُ ذواتنا حسبما جاء في وصية المسيح التي سمعناها في انجيل ذلك الاحد : « من اراد ان يتبعني فليفكر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني » (مرقس ٨ : ٣٥) . ولكننا لا نستطيع ان نحمل صليبنا ونتبع المسيح ما لم نحمل صليبه هو الذي صلب عليه كي يخلصنا . صليبه هو ، وليس صليبنا . صليبه هو الذي يعطي معنى وقوة للآخرين . هذا مـا يشرحه لنا سنكسار احد الصليب :

« في هذا اليـوم الذي هو الاحد الثالث من الصيام ، نعيّد للسجود للصليب الكريم المحيي .. بحيث اننـا بواسطة الصيام الاربعيني نحصل ونحن ايضاً كمصلوبين ، باماتتنا عن الاهواء ، نشعر بمرارة متضجرين ومتراخين. فلذا يُقدَّم الصليب الكريم المحيي مريّحاً ومقوياً ايانا ، ليذكرنا بآلام ربنا يسوع المسيح. ويعزينا ويشجعنا. . وايضاً كما ان الذين يسـعون في طريقٍ شاسعة وعرة . عندما يعييهم المسير يجلسون قليلاً حيث يجدون شجرة حسنة الظل ويستريحون . وبعدها يتقوّون جيـداً يجيزون بقية الطريق . هكذا والآن في زمان الصيام ، الذي هو كطريق شاسعة متعبة . قد زرع في الوسط من الآباء القديسين الصليب الحامل الحياة . مانحاً ايانا

راحة ومنشّطاً ومخففاً الذين قد كلّوا واعيــوا الى
تكميل بقية سعيهم المتعب . او كما انه عند حضور احد
الملوك ، تتقدم علامته وصولجانه ، ثم يحضر هو فرحاً
مبتهجاً بالظفر وتبتهج معه الرعيــة . على هذه الصورة
وربنا يسوع المسيح بما انه عتيد بعد قليل ان ينشر علم
ظفره على الموت ويحضر بمجد في يوم القيامة . قـــدم
صولجانه وعلمه الملوكي . اعني الصليب الكريم ، ليملأنا
بهجة وراحة عظيمة ويجعلنا مستعدين لاقتبـــال هذا
الملك بعد مدة يسيرة ، ولمديحه والثناء عليـــه لاجل
ظفره على اعدائه ، وقد حصل في السبّة الوسطى من
الاربعين المقدسة . لان الاربعين المقدسة تشبه عين
مرّان . لاجل الانسحاق ولاجل ما يحصل لنا مـــن
التمرمر والملل من تلقاء الصيام . ولكن الرب يعزينا
ويشجعنا كجائزين في قفر . الى ان يُبلغنا الى اورشليم
العقلية بواسطة قيامته . او بحيث ان الصليب يقال له
عود الحياة . كما وهو ايضاً بالحقيقة . وذاك العود وجد
مغروساً في وسط فردوس عدن . فلذلك بغاية اللياقة ،
نصب آباؤنا الالهيون عود الصليب في الاربعين المقدسة
ليذكرونا بنهم آدم . ثم مع ذلك ايضاً ليوضحوا نقض
وابطال ذاك العود بواسطة هذا . لاننا اذا ذقنا مـن
هذا لا نموت اصلاً . بل نحيا على الدوام .. »

وهكذا بعد ان نتشدّد وننتعش نبدأ بالنصف الثاني من الصوم . وبعــد اسبوع يأتي الاحد الرابع ونسمع الاعلان : « ان ابن البشر سيسلم الى ايدي الناس فيقتلونه وبعد ان يقتل يقوم في اليـــوم الثالث » (مرقس ٩ : ٣٠) .

ويتحول التشديد الآن من ذواتنا ، من توبتنا وجهادنا الى الاحداث التي حصلت « من اجلنا ومن اجل خلاصنا » .

« يا رب يا من جعلتنا نسبق اليوم فنشاهد آلامك الخلاصية اللامعة بهاء في قيامة العازر ، اهّلنا ان نكمل بقية الصيام » .

لم نعرف مصدر هذه القطعة

« اذ قد جاوزنا نصف زمان الصيام الآن . فلنظهر ابداء مجد الهي بايضاح . ولنسارع بحرارة نحو البلوغ الى غاية سيرة فاضلة . لكي نستمتع بالنعيم الذي لا يزول » .

صلاة مساء الاحد الرابع

وفي سحر الخميس من الاسبوع الخامس نسمع مرة اخرى « **قانون اندراوس الكريتي** » ولكننا نسمعه هذه المرة بكامله . فاذا كان هذا القانون في بداية الصوم بمثابة باب يقودنا للتوبة فهو الآن في نهاية الصوم يبدو « كخلاصة » للتوبة وانجازها . وان كنا في البدء قد اصغينا له مجرد اصغاء فقد اصبحت كلماته الآن، لحسن الحظ ، كلماتنا ، كما اصبح نحيبنا واملنا وتوبتنا وتقييمنا لجهادنا الصيامي.

الى اي حد اصبحت هذه الحقيقة تخصنا ؟ الى اي حد مشينا في طريق هذه التوبة ؟ لأن كل ما يخصنا يأتي الى نهايته . من الآن وصاعداً نحن نتبع التلاميذ « صاعدين في الطريق الى اورشليم ويسوع يتقدمهم » (مرقس ١٠ : ٣٢) . قال يسوع لهم : « هوذا نحن صاعدون الى اورشليم وابن البشر سيسلم الى رؤساء الكهنة والكتبة فيحكمون عليه بالموت ويسلمونه الى الامم . فيهزأون به ويبصقون عليه ويجلدونه ويقتلونه وفي اليوم الثالث يقوم » (مرقس ١٠ : ٣٢ - ٤٥) . هذا هو انجيل الاحد الخامس .

هنا يتغير معنى الخدم الصياميــة . فخلال القسم الاول من الصوم كانت غاية جهادنا تطهيرنا الذاتي . اما الآن فاننا ندرك ان ذاك التطهير لم يكن غاية بحدّ ذاته لان عليه ان يقودنا الى تأمل سرّ الصليب والقيامة وفهمه. ان معنى جهادنا ينكشف الآن كاشتراك في ذاك السر الذي اعتــدنا عليه كثيراً حتى اننا اعتبرناه من المسلّمات وهكذا ببســاطة نسيناه . وهكذا اذ نتبع الرب صاعـــداً الى اورشليم مع تلاميذه نكون « منذهلين وخائفين » (مرقس ١٠ : ٣٢) .

٥ — في الطريق الى بيت عنيا واورشليم

ويسمى الاسبوع السادس والاخير من الصوم « اسبوع الشعانين » . فقبــل ستة ايام من سبت العازر واحد الشعانين ، تجعلنا طقوس الكنيسة نتبع المسيح منذ اعلانه لموت صديقه العازر الى ان يبدأ رحلته الى بيت عنيا واورشليم . ويعطينا غروب الاحد موضوع الاسبوع ووقعه :

> « هلمّ يا مؤمنون. لنبتدىء بنشاط في الاسبوع السادس من الصيام المكرم . ولننشد تسابيح وتقدمة عيــد الشعانين للرب الآتي بمجد إلى اورشليم .. »
> من صلاة مساء الاحد الخامس

مركز الاهتمام هو العازر ، مرضه وموتـه ونحيب اقربائه وموقف المسيح تجاه هذه الامور كلها .

فهكذا نسمع يوم الاثنين :

> « اليوم مرض العازر يظهر للمسيح وهو يمشي على الضفة الثانية من الاردن .. »

والثلاثاء :

« البارحة واليوم ، العازر مريض .. »

والاربعاء :

« اليوم العازر الميت يدفن واقرباؤه يبكون . »

والخميس :

« العازر له يومان في القبر »

واخيراً نسمع يوم الجمعة :

« غداً يأتي المسيح .. لينهض الميت اخا (مريم ومرتا) .

وهكذا ينقضي الاسبوع بالتأمل الروحي للمجابهة المقبلة بين المسيح والموت ـ اولاً بشخص صديقه العازر وثانياً بموت المسيح نفسه ـ انه اقتراب « ساعة المسيح » تلك التي تحدث عنها مراراً والتي نحوها توجهت خدمته الارضية كلها. ولكن علينا ان نتساءل : ما هو مكان هذا التأمل وما هو معناه في الطقس الصيامي ؟ وكيف يرتبط بجهادنا الصيامي ؟

تفترض هذه الاسئلة سؤالاً آخر ، علينا ان نجيبه بايجاز . في تعييدنا لحوادث حياة المسيح ، تنقل الكنيسة غالباً، اذا لم يكن دائماً ، الزمن الماضي الى الحاضر. ففي الميلاد نرتل : « **اليوم** العذراء تلد .. » وفي يوم الجمعة العظيم : « **اليوم** يقف امام بيلاطس .. » وفي احد الشعانين : « **اليوم** يأتي الى اورشليم » . والسؤال هو ما معنى هذا النقل ؟ ما معنى هذه الكلمة الليتورجية اليوم ؟

قد يفهم اغلب المصلين هذه الكلمة كاستعارة او تشبيه شعري . وفهمنا العصري للعبادة هو اما عقلي او عاطفي. فالموقف العقلي يحول الطقوس الى مجرد انكار وهذا الموقف متأصل في اللاهوت المتغرّب (Westernized) الذي نما في الشرق الارثوذكسي بعد انحلال العصر الآبائي والذي يعتبر الليتورجيا ، في

افضل الاحوال ، مادة خام للتعريفات والمقولات العقلانية. وما لا يمكن تحويله الى حقيقة عقلانية يسميه « شعراً » اي ما لا نستطيع ان ننظر اليه بعين الجدّ. وبما انه من الواضح ان الكنيسة تعيّد لاحداث تنتمي للماضي فالتعبير الليتورجي « اليوم » لا يعطيه اي معنى جدّي . اما بالنسبة للموقف العاطفي فهو حصيلة تقوى فردية وانركزية (Self - centered) وهو الى حد بعيد شبيه باللاهوت العقلاني . وبالنسبة لهذا النوع من التقوى ، العبادة هي قبل كل شيء ، اطار نافع للصلاة الشخصية وخلفية موحية غايتها ان « تشجع » قلوبنا وتوجهنا نحو الله . اما محتوى الخدم والنصوص الليتورجية والطقوس والحركات ومعناها فهو هنا ذو اهمية ثانوية . فهي نافعة ومناسبة بقدر ما تجعلني اصلي . وهكذا فعبارة « اليوم » مع جميع النصوص الليتورجية تنحلّ في صلاة موحاة وتقوية لا تمييز فيها .

وبسبب سيطرة هذين الموقفين طويلاً على ذهنية كنيستنا ، صار من الصعب جداً ان نظهر اليوم ان ليتورجيا الكنيسة الحقيقية لا يمكن ان تحول الى مجرد « افكار » او « صلوات » . فالمرء لا يقيم خدمة « افكار » . اما بالنسبة للصلاة الشخصية فلم يقل الانجيل اننا عندما نريد ان نصلي علينا ان نغلق انفسنا ضمن بيوتنا وندخل في شركة شخصية مع الله (متى ٦ : ٦) ؟ ان مبدأ اقامة الخدمة يتضمن في الوقت نفسه حدثاً وتجاوباً اجتماعياً معه . فاقامة الخدمة ممكنة فقط عندما يأتي الناس معاً متجاوزين انفصالهم الطبيعي وعزلتهم بعضهم عن بعض متجاوبين معاً كجسم واحد ، وكأنهم شخص واحد ، تجاه حدث معين . (مثلاً مجيء الربيع ، زواج ، دفن ، نصر ، الخ) . والعجيبة الطبيعية لكل خدمة من هذا النوع هي انها تتجاوز – ولو لفترة محددة من الزمن – مستوى الافكار والفردية . ان المرء بالحقيقة يضيع ذاته في الخدمة ويجد الآخرين بطريقة فريدة . ولكن في هذه الحالة ما معنى التعبير الليتورجي « اليوم » الذي به تبدأ الكنيسة جميع خدمها ؟ بأي معنى نحتفل اليوم بأحداث ماضية ؟

يستطيع المرء ان يقول بدون مبالغة ان حياة الكنيسة كلها تذكّر وتذكار. ففي نهاية كل خدمة نشير الى القديس « الذي نقيم تذكاره الآن » . ولكن وراء كل ذكرى ، تظهر الكنيسة كتذكار للمسيح . من وجهة نظر طبيعية محضة ، الذاكرة هي قدرة غامضة . فمثلاً لتذكر شخص نحبه وقد فقدناه يعني امرين . فمن جهة ، الذاكرة هي اكثر من معرفة محضة للماضي . عندما اتذكر والدي الراحل ، اراه . انه حاضر في ذاكرتي ، ليس كمجموع **ما اعرفه عنه** ، بل بحقيقته الحية . ولكن من جهة اخرى ، هذا الحضور نفسه هو الذي يجعلني احس واقعياً انه ما عاد هنا وانه « لن يعود » ثانية الى هذا العالم والى هذه الحياة ولن الامس يده التي اراها بحيويتها في ذاكرتي . وهكذا فالذاكرة هي في الوقت نفسه اجمل الملكات الانسانية واكثرها مأساوية ، لانه لا شيء افضل منها يعكس طبيعة حياتنا المنكسرة ويعكس استحالة ان نحفظ حقيقةً او ان نملك حقيقةً اي شيء في هذا العالم . الذاكرة تكشف لنا ان « الزمن والموت يسيطران على الارض » . ولكن بالضبط بسبب هذا الدور الانساني الفريد للذاكرة ، تشدّد المسيحية عليها ، لان المسيحية هي اولاً تذكّر **انسان واحد، حدث واحد ، ليلة واحدة** سمعنا صوتاً الهياً من اعماقها يقول « اصنعوا هذا لذكري » . وهكذا تحدث المعجزة . اننا نتذكره **وهو هنا** ، ليس كصورة عاطفية من الماضي او نشيد حزين « لن يعود » ، بل كحضور حار حتى ان الكنيسة بمقدورها ان تردّد ابدياً مع تلاميذ عمواص « .. اما كانت قلوبنا مضطرمة فينا ؟ » (لوقا ٢٤ : ٣٢) .

الذاكرة الطبيعية هي قبل كل شيء « حضور الغائب » حتى اننا بقدر ما يكون الشخص الذي نتذكره حاضراً ، بقدر ما يكون الم غيابه حاداً. ولكن في المسيح ، تصبح ايضاً الذاكرة القوة التي تملأ الزمن المكسور بالخطيئة والموت وبالنسيان والكراهية . وهذه الذاكرة الجديدة **كقوة** فوق الزمن وانكساره هي في قلب الخدمة الليتورجية وفي قلب « اليوم » الليتورجي . من المؤكد ان

العذراء لا تـلد اليوم وليس من احد يقف « بالفعل » امـــام بيلاطس . فهذه كوقائع تخص الماضي . ولكننا « اليوم » نستطيع ان نتذكر هذه الوقائـع او الاحداث والكنيسة هي بالدرجة الاولى موهبة التذكر وقوّتها التي تحوّل وقائع الماضي الى احداث ذات معنى ازلياً .

الخدمة الليتورجية هي اذاً دخول جديد للكنيسة في الحدث . وهذا لايعني فقط « فكرته » بل فرحه وحزنه وحقيقته الملموسة والحية . ان نعرف ان المسيح المصـــلوب بصراخه « الهي الهي لماذا تركتني » كان يعبر عن تواضعه وانسحاقه ، هذا من جهة . ومن جهة اخرى ان نحتفل كل سنة بيوم الجمعة العظيم الذي فيه نعرف بيقين كامل ـ بدون ان نعقلنه ـ ان هذه الكلمات قـد لفظت مرة واحدة ولكنها باقية ازلاً حقيقية ، حتى ان لا نصر ولا مجد ولا «تلخيص» يستطيع ان يمحوها. انه لأمر ان نشرح ان قيامة العازر كانت « لتحقيق القيامة العامة » (طروبارية اليوم) ، وامر آخر بالكلية ان نحتفـل لاسبوع كامل بهذه المواجهة ، المقتربة ببطء ، بين الحياة والموت ، ان نصبـح جزءاً منها وان نرى بأعيننا ونحس بكل كياننـــا ما تضمنته كلمات يوحنـــا : « ارتعش بالروح واضطرب .. ودمّع (يوحنا ١١ : ٣٣ ـ ٣٥) . من اجلنا ولاجلنا يحصل كل هذا اليوم . نحن لم نكن هناك في بيت عنيا مع الاخوات الباكيات. نحن نعرف من الانجيل فقط ما جرى . ولكن في احتفال الكنيسة اليوم يصبح الواقـــع التاريخي حدثاً من اجلنا ، من اجلي ، كقوة في حياتي ، كذكرى وفرح . ان اللاهوت لا يستطيـع ان يتجاوز « الفكرة » . ومن جهة الفكرة هل نحتاج الى تلك الايام الخمسة الطويلة عندما نستطيـع ان نقول ببساطة « ليحقق القيامـــة العامة » ؟ ولكن رأس القضية ان هذه الجملة في نفسها وبنفسها لا تؤكد شيئاً . التأكيد الحقيقي يأتي من الاحتفال الكنسي وبالضبط من تلك الايام الخمسة التي شاهدنا فيها بداية العراك المميت بين الحياة والموت ، والتي فيها بدأنا ليس ان نفهم بل ان نشاهد المسيح ذاهباً ليدوس الموت بالموت .

ان الاحتفال الرائع في ذلك السبت الفريد ، سبت قيامة العازر ، يتجاوز الصوم . فمن يوم الجمعة الذي يسبقه ننشد : « بعد ان اكملنا الاربعين يوماً النافعة » . وبلغة الطقوس ، سبت العازر وأحد الشعانين هما « بداية الصليب ». ولكن الاسبوع الاخير من الصوم ، الذي هو احتفال مسبق ومستمر لهذه الايام هو الكشف الاقصى لمعنى الصوم . وقد قلنا في بداية هذا الكتاب ان الصوم هو تهيئة للفصح . ولكن في الواقع ، في الخبرة العامة التي اصبحت الآن تقليداً ، تبقى هذه التهيئة مجردة واسمية . فالصوم يوضع بجانب الفصح ولكن بدون فهم حقيقي لارتباطهما ولوقف كل منهما على الآخر. حتى اذا لم يفهم الصوم كموسم للاعتراف والمناولة مرّة في السنة ، فاننا ننظر اليه عادة من وجهة نظر الجهد الشخصي ويبقى هكذا انزكزياً . وبكلمة اخرى ما هو غائب عملياً من الخبرة الصيامية هو ذاك الجهد الجسدي والروحي الذي يبغي اشتراكنا في « اليوم » لقيامة المسيح ، ولا يبغي تحسناً اخلاقياً او ضبطاً اكبر للشهوات ولا حتى كمالاً ذاتياً بل شركة قصوى في يوم المسيح الشامل . والروحانية المسيحية التي لايكون هذا قصدها ، هي في خطر التحوّل الى شبه مسيحية ، لانها في التحليل الاخير تحرّكها « الذات » وليس المسيح . الخطر هنا هو انه عندما يكون القلب نظيفاً طاهراً محرراً من الشيطان الذي يسكنه ، ويبقى فارغاً ، يعود الشيطان اليه ، « ويأخذ معه سبعة ارواح آخرين شرّاً منه فيأتون ويسكنون فيه فتكون اواخر ذلك الانسان شرّاً من اوائله » (لوقا ١١ : ٢٦) . في هذا العالم كل شيء – حتى الروحانية – يمكن ان يصبح شيطانياً . وهكذا فمن الضروري جداً ان نستعيد معنى الصوم ووقعه كتهيئة حقيقية ليوم (اليوم) القيامة العظيم .

لقد رأينا حتى الآن ان الصوم ينقسم الى قسمين . فقبل احد الصليب ، تدعونا الكنيسة الى تركيز الاهتمام على انفسنا ، الى محاربة الجسد وشهواته والشيطان والخطايا جميعها . وبينما ننجز هذه الامور نحن مدعوون دائماً ان ننظر

الى الامام ، ان نقيس جهدنا ونضاعفه « بشيء افضل » مألهينا . وفي القسم الثاني، من احدالصليب، تصبح آلام المسيحوصلبه وموته مركز الخدمالصيامية ، تصبح صعوداً الى اورشليم .

واخيراً اثناء هذا الاسبوع الاخير من التهيئة ، يبدأ الاحتفال بالسرّ . لقد اهّلنا الجهد الصيامي ان نضع جانباً كل ما يعكّر عادة ودائماً الموضوع الرئيسي لايماننا ورجائنا وفرحنا . والزمن نفسه ، كما كان ، يأتي الى نهايته ، وما عاد يقاس باهتماماتنا ومشاغلنا اليومية بل بما يحدث في الطريق الى بيت عنيا وما بعده الى اورشليم . ومرة اخرى نقول ان هذا الكلام ليس خطابياً . فأي انسان ذاق طعم الحياة الليتورجية الحقيقية – ولو كان لمرة واحدة وبطريقة غير كاملة – يجد بديهياً انه من اللحظة التي فيها نسمع « افرحي يا بيت عنيا .. » وبعدها « غداً يوافي المسيح .. » يصبح العالم الخارجي تقريباً غير حقيقي كما يعاني المرء تعباً في استعادة العلاقات اليومية الضرورية في العالم. « الحقيقة » هي ما يجري الآن في الكنيسة في ذلك الاحتفال الذي يجعلنا ندرك يوماً بعد يوم ما معنى ان نترجّى ولماذا المسيحية هي قبل كل شيء رجاء وتهيئة . وهكذا عندما يأتي مساء ذلك الجمعة ونرنم « بعد ان اكملنا الاربعين يوماً البانية » نكون قد انجزنا ليس فقط « فرضاً مسيحياً سنوياً » بل نكون ايضاً قد استعددنا لنجعل الترانيم التي ننشدها في اليوم التالي مخصصة لنا :

« ايها الموت ان المسيح قدحطمك الآن بواسطة العازر،
فأين غلبتك يا جحيم ؟ »

اكسابوستلاري سبت العازر

الفصل الخامس

الصوم في حياتنا

١ ــ ان نأخذه جدياً

كنا نتحدث حتى الآن عن تعليم الكنيسة حول الصوم كما تقدمه لنا، بالدرجة الاولى ، الطقوس الصيامية . والآن علينا ان نطرح الاسئلة التالية : كيف يمكننا تطبيق هذه التعاليم في حياتنا ؟ ما هو تأثير الصوم الفعلي في واقعنا ؟ لا شك ان واقعنا اليوم يختلف كلياً عن الواقع الذي انتج هذه الخدم والترانيم والقوانين . انسان ذلك اليوم عاش في مجتمع صغير نسبياً ، في مجتمع ريفي وفي عالم ارثوذكسي بحت . حتى ان وقع حياة الانسان ، كانت الكنيسة تطبعه بطابعها الخاص . اما الآن فاننا نعيش في مجتمع مديني وصناعي هائل، متعدد المعتقدات الدينية ، علماني النظرة ، والارثوذكس فيه يشكلون اقلية لا قيمة لها . لم يعد الصوم كما كان مثلاً في روسيا او اليونان . ولذا فسؤالنا واقعي وحقيقي . كيف يمكننا اليوم ان نحافظ على الصوم ما عدا ادخالنا تغييراً رمزياً واحداً او اثنين في حياتنا اليومية ؟

انه لواضح مثلاً ان الاغلبية الساحقة من المؤمنين لا تشارك يومياً في الصلوات الصيامية . انهم يتابعون مجيئهم الى الكنيسة في الآحاد . ولكن كما نعلم ان القداس في الآحاد الصيامية ، على الاقل في الظاهر ، لا يعكس الصوم . ولذا بالكاد يستطيع المرء ان يكون عنده « حسّ » بالنموذج الصيامي للعبادة الذي

بواسطته يمكننا ان نمتلك روح الصوم . وبما ان الصوم لا ينعكس في حضارتنا ولا بطريق من الطرق ، فلا عجب اذاً ان يكون فهمنا اليوم للصوم فهماً سلبياً فنعتبر الصوم موسماً نمتنع فيه عن بعض الاشياء مثـــل اللحم والبيض والرقص والتسلية وغيرها . والسؤال المطروح عمّا ينبغي لنا ان نمتنع في الصوم ، هذا السؤال يعبر بوضوح عن هذا الموقف السلبي العام . اما من ناحية «ايجابية» فنحن ننظر للصوم كموسم سنوي علينا اثناءه ان نتمّم «واجباتنا» السنوية في الاعتراف والمناولة . واذ نتمّم هذه الفرائض فما يبقى من الصوم فهو بلا اهمية .

وهكذا نجد ان تناقضاً واضحاً قد تطوّر بين روح الصوم التي حاولنا ان نظهرها من خلال العبادة الصيامية وبين مفهومه العام عند الشعب الذي يشارك فيه ويدعمه ليس العلمانيون وحسب بل الكهنة ايضـــاً . وهذا حاصل لانه من الاسهل دائماً ان نحوّل الروحي الى شكلي من ان نكتشف الروحي وراء الشكل ولذا نستطيع ان نقول بدون مبالغة انه بالرغم من « المحافظة » على الصوم فقد اضاع الكثير من تأثيره في حياتنا ، وما عاد غسل التوبة والتجديد، الامر الذي كانت تبغيه الكنيسة في طقوسها وتعليمها الروحي . ورغم ذلك هل نستطيع ان نكتشف الصوم من جديد وان نجعله قوة روحية في حياتنا اليومية ؟ ان الجواب على هذا السؤال يتوقف بالدرجة الاولى وكلياً على رغبتنا اذا كنا نريد ان نأخذه جدياً . ومهما كانت الظروف التي نعيش فيها اليوم جديدة ومختلفة ، ومهما كانت الحواجز والصعوبات التي يقيمها عالمنا المعاصر واقعية وحقيقية فـلا شيء يستطيع انيكون عائقاً مطلقاً ولاشيء يمكنه انيجعل الصوم «مستحيلاً». واما السبب الحقيقي لضعف تأثير الصوم في حياتنا يكمن في مكان اعمق . ان اقتصارنا الواعي او غير الواعي للديانة على الرموز والامور الشكلية هو بالضبط سبب هذا الضعف وهذه اللامبالاة بجدّية المتطلبات الدينية في حياتنا ، هـــذه المتطلبات الداعية للجهاد والالتزام . وهذا الاقتصار ، يجب ان نضيف ، هو بطريقة ما فريد في الارثوذكسية . المسيحية الغربية ، كاثوليكية ام بروتستنتية ،

عندما تواجه ما تعتــبره « مستحيلاً » تغيّر الديانة نفسها او « تعدّلها » لتلائم الظروف الجديدة وهكذا تجعل ممارسة الديانة ممكنة . فقد رأينا حديثاً مثــلاً الكنيسة الكاثوليكية تعـدّل اولاً الصوم الى مجرّد الحد الادنى ومن ثم تتخلص منه عملياً بالكلية . ونحن الارثوذكس ندين هذا «التعديل» بحق ونعتبره انحرافاً عن التقليد المسيحي وتصغيراً للايمان المسيحي . وبالواقع انه لفخر للارثوذكسية ومجد لها اذ هي مستمرة في تقليدها ولاتساوم مع المقاييس الدنيا اى انها لاتجعل المسيحية « سهلة » . انـــه مجد **الارثوذكسية** ولكن بالتأكيد **ليس** مجدنا نحن الارثوذكس . (من هنا حتى آخر المقطع يبدو ان المؤلف يسخر) . لقد وجدنا طريقاً ، ليس اليوم ولا البارحة ولكن منذ زمن بعيد ، للتوفيق بين متطلبات الكنيسة المطلقة وبين ضعفنا البشري . وقد وجدناه ليس فقط بدون « اراقــة ماء الوجه » بل ايضاً بأسباب تزيدنا برّاً وراحة ضمير . وهذه الطريــق هي ان ننجز هذه المتطلبات رمزياً ، والرمزية الاسمية تتخلـّل اليوم حياتنا الدينيـــة كلها . مثلاً نحن لانفكّر مجرد تفكير باعادة النظر بطقوسنا وقواعدها الرهبانية ـ لاسمح الله ـ بل نتابع تسمية خدمة ساعة في المساء « سهرانة الليل » ونشرح بفخر ان ما نقيمه هو الخدمة بعينها التي كان رهبان لافرا القديس سابا يقيمونها في القرن التاسع . اما بخصوص الصوم فبــدل ان نطرح الاسئلة الاساسية ما هو الامتناع عن الطعام وما هو الصـــوم ، نكتفي انفسنا بالرموز الصيامية . ففي المجلات والنشرات الكنسية تظهر وصفات لـ « طعام صيامي شهي » . ويمكن للرعية ان تجمع بعض المال الاضافي بواسطة « عشاء صيامي فاخر » تقيم له دعاية ناجحة . هكذا يفهم الصوم رمزياً في كنائسنا كعادات وتقاليــد مهمة ومسلية ومنوعة لا تربطنا بالله وبالحياة الجديدة فيه ، بل بالماضي وبعادات الاجداد.وقد اصبح من الصعب جداً ان نميز وراء هذا الفولـكلور الديني، جدّية الدين المطلقة . انني اشدد انه لا شيء خاطيء في العادات المختلفة بحد نفسها . فعنــدما ظهرت هذه العادات ، كانت وسائط وتعابير لمجتمع يأخذ الدين مأخذ الجد . ولم تكن رموزاً بل الحياة نفسها. ولكن ما حدث هو انه بينما كانت الحياة تتغيّر وتصبح

بكليتها اقل فأقل تأثيرا بالدين ، بقيت بعض العادات كرموز لطريقة حياة ما عادت معاشة . وما بقي هو من جهة الاكثر تنويعاً ، ومن جهة اخرى الاقل صعوبة . والخطر الروحي هنا هو انه رويداً رويداً بدأ المرء يفهم الدين نفسه كمجموعة من الرموز والعادات بدل ان يفهم هذه الاخيرة كتحدٍّ للتجديد الروحي وجهاده . ونحن نصرف في تحضير الاطعمة الصيامية والفصحية جهوداً اكبر مما نصرفها في الصوم وفي الاشتراك في حقيقة الفصح الروحية . وهذا يعني انه ما لم ترتبط العادات والتقاليد بالرؤية الدينية العامة التي انتجتها ، وما لم تؤخذ هذه الرموز جدياً ، ستبقى الكنيسة منفصلة عن الحياة وبلا تأثير في الحياة . وبدل ان نجعل « تراثنا الغني » ، رمزياً ، علينا ان نبدأ باتحاده في حياتنا الواقعية .

وبعد ينبغي لنا ان نأخذ الصوم جدياً ، يعني ان ننظر اليه بالدرجة الأولى بعمق - كتحدٍّ روحي يتطلب جواباً ، وقراراً وتصحيحاً وجهداً متواصلاً . ولهذا السبب ، كما نعرف ، وضعت الكنيسة اسابيع التهيئة للصوم . هذا هو اوان الجواب والقرار والتصميم . وافضل طريق واسهلها هي ان نتبع توجيه الكنيسة - ولو كان بالتأمل فقط في موضوعات الاناجيل الخمسة المقدمة لنا في الآحاد الخمسة التي تسبق الصوم وهي : الرغبة (زكا) والتواضع (الفريسي والعشار) والعودة من المنفى (الابن الضال) والدينونة (الدينونة الاخيرة) والغفران (احد الغفران) . وهذه الاناجيل ليست فقط للاصغاء في الكنيسة وحسب بل القضية كلها هي ان نحملها معنا الى « بيوتنا » ، ان نتأملها بالقياس الى **حياتي** وبالقياس الى موضعي العائلي ، لواجباتي المهنية ، لاهتماماتي بالامور المادية ، لعلاقاتي بالناس الحقيقيين الذين اعيش معهم ، وبالتالي لنعيشها حقيقة وكلياً . واذا اضفنا الى هذا التأمل تلك الصلاة التي تسبق الصوم « افتح لي ابواب التوبة ، يا واهب الحياة .. » والمزمور ١٣٧ « على انهار بابل .. » ساعتها نفهم ماذا يعني « ان نشعر مع الكنيسة » وكيف تطبع الطقوس حياتنا اليومية .

والآن هو الوقت لقراءة كتاب ديني . وهدف هذه القراءة ليس ان نزيد معارفنا حول الدين وحسب ، بل ان نطهّر عقولنا من كل ما يدنسها عادة . والامر الهام جداً والمؤسف جداً هو كيف ان عقولنا محشوّة بجميع انواع الاهتمامات والمصالح والهواجس والمشاعر وكيف ان رقابتنا لهذا الحشد ضعيفة جداً . في حين ان قراءة كتاب ديني وتركيز انتباهنا على شيء مختلف بالكلية عما نفكر به عادة ، يخلق في نفوسنا جواً عقلياً وروحياً مختلفاً وسعيداً . هذه الامور ليست « وصفات » . هناك طرق اخرى يمكن للمرء ان يهيء بها نفسه للصوم . النقطة المهمة هي اننا في هذه الفترة السابقة للصوم ، ننظر للصوم من بعيد ، كأمر آت الينا او حتى كمرسل الينا من الله نفسه كفرصة للتغيير والتجديد والتعميق . وعلينا ان ننتهز هذه الفرصة الآتية جدياً حتى اننا عندما نذهب الى غروب احد الغفران نكون مستعدين لنجعل خاصتنا ولو بطريق ضيقة ـ **البروكيمنن الكبير** الذي يبدأ الصوم :

لا تصرف وجهك عن عبدك فاني حزين ...

٢ ـ الاشتراك في الخدم الصيامية

كل واحد منا يستطيع ان يشترك في الخدم الصيامية وعلى الاقل بقسم منها. ولا عذر لاحد حتى لا يجعل الصوم ممارسة ، وقبل كل شيء ، فرصة لزيادة اشتراكه في الصلوات الكنسية . وهنا ايضاً يؤدي الوضع الشخصي بامكاناته وحدوده الى قرارات مختلفة من شخص لآخر . ولكن يجب ان يكون هناك قرار ، يجب ان نعمل جهداً ومتابعة . ولكن من وجهة النظر الطقسية ، يمكننا ان نقترح « **الحد الادنى** » وغايته ليس ان يعطينا حساً روحياً بأننا اتممنا واجبنا بل ان يعطينا ، على الاقل ، الجوهري من روح الطقوس الصيامية .

اننا مدعوون ، بالدرجة الاولى ، ان نعمل جهداً خاصاً على صعيد الرعية

لنقيم بطريقة لائقة خدمة **غروب احد الغفران**. وانها لمأساة حقــاً ان هذه الخدمة في كثير من الكنائس اما لا تقام مطلقاً او انها لا تعطى الاهتمام والانتباه الكافيين . يجب ان تكون هذه الخدمة سنويـاً « عملاً رعائياً » عظيماً وان تهيأ ببالغ الاهمية . كما يجب ان تقوم هذه التهيئة في تدريب الجوقة وشرح الخدمة بالمواعظ او النشرات الرعائية ، وان نقيمها في افضل وقت مناسب ليتمكن اكثر المؤمنين من الاشتراك بها . وباختصار ان نجعل منها حدثاً روحياً حقيقياً . لانه ، ولمرة اخرى ، لا شيء افضل من هذه الخدمة يكشف معنى الصوم كتوبة ومصالحة ، كابحار جماعي في رحلة مشتركة .

والافضلية الثانية ، يجب ان تعطى للاسـبوع الاول من الصوم . كما يجب انتعمل جهداً خاصاً لنسمع مرة اومرتين علىالاقل « **قانون اندراوس الكريتي**» ولقد قلنا سابقاً ان دور طقوس هذه الايام الاولى ، ان تدخلنا الى « النمط » الروحي للصوم الذي وصفناه كـ « الحزن البهي » .

ومن الضروري جداً اثناء الصوم ان نشترك مرة على الاقل، بخدمة **القدسات السابق تقديسها**، وان نتهيأ روحياً لهذا الاشتراك اي بالصوم الكامل وان نحوّل يوماً واحداً من ايامنا على الاقل الى توقع حقيقي للفرح والدينونة . ولا يمكن ان تقبل اعذار مثل ان اوضاعي لا تسمح لي او ان وقتي ضيق .. الخ .. لاننــا ان كنا نقوم فقط بما « يناسب » بسهولة اوضاعنا الحياتية ، يصبح مفهــوم الجهد الصيامي بلا معنى اطلاقاً . وليس فقط في القرن العشرين بـل منذ آدم وحواء كان « هذا العالم » دائماً عثرة لاتمام وصايا الله . ولذا لا شيء جديــد او خاص « بطريقة حياتنــا » المعاصرة . بالنهاية كل شيء يتوقف ، مرة اخرى ، على ارادتنا اذا كنا نريد ان نأخذ ديننا جدياً او لا . واذا كان جوابنا ايجابيـاً ان نكون ثماني او عشر مرات سنوياً في الكنيسة ، فهذا بالحقيقـة الجهد الادنى . واذا حرمنا انفسنا من الاشتراك في هذه الخدمة فهذا يعني اننــا حرمنا انفسنا

ليس فقط من جمال الخدم الصيامية وعمقها ومن العون الروحي الضروري ، بل ايضاً ، كما سنرى في المقطع التالي ، مما يجعل صيامنا فاعلاً وذا معنى .

٣ ـــ « ... الا بالصلاة والصوم »

لا يوجد صوم بدون الامتناع عن الطعام . ويبدو ان كثيرين اليوم اما لا يأخذون هذا الامتناع جدياً او انهم يسيئون فهم حقيقة غايته الروحية . وعند البعض يقوم الصوم على الامتناع « عن بعض الامور » وعند الآخرين هو محافظة دقيقة على القواعد الطعامية . ولكن في الحالين ، نادراً ما نجد هذا الامتنـــاع مرتبطاً بالجهد الصيامي . اذاً علينـــا اولاً ان نحاول فهم تعليم الكنيسة حول الصوم وبعدها نسأل انفسنا : كيف نستطيع تطبيق هذا التعليم في حياتنا ؟

فالصوم او الامتناع عن الطعام ليس وقفاً على المسيحية وحدها . بـل هو موجود في اديان اخرى وحتى خارج الدين مثلاً « كعلاج » لبعض الامراض . والناس اليوم يصومون (او يمتنعون) لعدة اسباب منها احياناً اسباب سياسية . اذاً من المهم جداً ان نميز المحتوى المسيحي الفريد للصوم .

يظهر الصوم لنا اولاً في ذلك الارتباط بين حدثين نجدهما في الكتاب المقدس: احدهما في بداية العهد القديم والثـاني في بداية العهد الجديد . الحدث الاول هو كسر آدم للصوم في الفردوس ، عندما أكل من الثمار المحرمة . وهكذا انكشفت لنا خطيئة الانسان الاولى . اما المسيح ، آدم الجديد ــ وهذا هو الحدث الثاني ــ فيبدأ بالصوم . جرّب آدم فوقع في التجربة ، اما المسيح فقـــد تغلب عليها . نتيجة فشل آدم كان الطرد من الفردوس والموت ، اما ثمار غلبة المسيح فكانت حطم الموت وعودتنا للفردوس . ويمنعنا ضيق المجال الآن من الاستفاضة بشرح معنى هذا التوازي بـين آدم والمسيح . ولكنه واضح في هذا المنظار ان الصوم

هو امر حاسم ومهم جداً . ليس هو مجرد « فرض » او اعادة . انـــه مرتبط بسر الحياة والموت نفسه وبالدينونة والخلاص .

ليست الخطيئة في التعليم الارثوذكسي مجرد تعدٍ لقاعدة يقود الى العقوبـــة وحسب بل هي انقطاع عن الحياة التي اعطانا اياها الله . ولهذا السبب أُعطيت لنا صورة الخطيئة الاولى بشكل عملية أكـْل . فالطعام هو واسطة الحياة وهو الذي يبقينا على قيد الحياة . ولكن هنـا يكمن السؤال الاساسي : ما معنى ان نبقى على قيد الحياة وما معنى الحيـاة ؟ فللحياة بالنسبة الينا معنى بيولوجي : الحياة هي بالضبط ما يتوقف كلياً على الطعام وباكثر شمولاً على العـــالم المادي . ولكن بالنسبة للكتاب المقدس وللتقليد المسيحي ، هذه الحياة « بالخبز وحده » مطابقة للموت لانها حياة مائتة ، لان الموت يعمل فيها دائمـاً . اما الله ، يخبرنا الكتاب ، فلم « يخلق الموت » . انه معطي الحيـاة . فكيف اصبحت الحيـاة مائتة ؟ لماذا المــــوت ، ولماذا الموت، وحده هو القانون المطلق لكل ما يوجد ؟ تجيب الكنيسة : لان الانسان رفض الحياة ، الحياة التي اعطاه اياها الله وفضّل الحيـاة ، الحياة التي تقوم « على الخبز وحده » وليس على الله وحده . ولم يعص الله فقط ، وقد لقي قصاصه لهذه المعصية ، بل غـيَّر العلاقـة نفسها بينه وبين العالم . لقد اعطاه الله العالم « كطعام » ، كواسطة حيـاة . والحياة هي شركة مع الله ، محتواها وغايتها الله « فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس ». اذن خلق الله الـــعالم والطعام ليكونا واسطة شركة مع الله فاذا ُقبلا من اجل الله اعطيا الحياة .الطعام بحد نفسه لا حياة فيه ولا يستطيـع ان يعطي الحياة . الله وحده عنده الحياة وهو الحيـاة . وهو الذي يهبها من يشاء . في الطعام نفسه ، وليس بالحريرات ، كان الله مبدأ الحياة . وهكذا ان نأكل ، ان نبقى على قيـد الحيـاة ، ان نعرف الله وان نكون في شركة معه كانت واحداً وامراً واحداً . ان مأساة آدم التي لا يسبر غورها هي انه أكل من اجل الأكل نفسه . وأكثر من هذا انه أكل « **مفصلاً** » عن الله ليكون مستقلاً عنه . وقد فعل هذا لأنه اعتقد

ان الطعام يملك الحيـاة في نفسه وانه بأكله من هذا الطعام بامكانه ان يصير مثل الله اي ان يملك الحيـاة في ذاته . او بكلمة أبسط ، لقد آمن بالطعام مع العلم ان الغرض الوحيد للأعتقاد والأيمان هو الله والله وحده . أما بالنسبة لآدم فقـد أصبح العالم والطعام آلهته ومبدأ حياته ومنبعها . لقد أصبح عبدها . آدم تعني بالعبرية « الانسان » انه اسمي ، اسمنا المشترك . والانسان ما زال آدم ، عبـد « الطعام » قد يدّعي انه يؤمن بالله ، ولكن الله ليس حياته ، طعامه ، ومحتوى وجوده بكَيتِه . قد يدّعي انه يأخذ حياته من الله ولكنه لا يعيش في الله ومن اجل الله . ان علمه وخبرته ووعيه الذاتي ، هذه كلهـا قد بنيت على المبدأ نفسه « بالخبز وحده » . اننا نأكل كي نبقى على قيد الحيـاة ولكننا لا نحيـا في الله . هذه هي خطيئة الخطايا . هذا هو حكم الموت الذي اعطي لحياتنا .

المسيح هو آدم الجديد وقدجاء ليصلح الأذى الذي وقع بواسطة آدم ، ليعيد الانسان الى الحياة الحقيقية وهكذا يبدأ ايضاً بالصوم . « فبعد ما صـام أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاع » (**متى ٤ : ٢**). والجوع هو تلك الحالة التي فيها ندرك اتكالنا على شيء آخر ـ عندما نحتاج جوهرياً وبالحاح للطعام ـ وهكذا نظهر اننا لا نملك حياة في ذواتنا . انه الحدود التي لا اسطتيـع ان اتجاوزها فاما ان أموت من الجوع او أشبع جسدي وعندها أشعر من جديد انني على قيد الحياة . وبكلمة أخرى ، انه الزمن الذي أواجه فيه السؤال الأخـــير : على ما تتوقف حياتي؟ وبما ان هذا السؤال ليس سؤالاً اكاديمياً بل أحسه بكل جسدي فالصوم هو زمن التجربة أيضاً . لقد جاء الشيطان الى آدم في الفردوس ، اما الى المسيح فقد جـاء في الصحراء . جـاء الى انسانين جائعين وقال : 'كلْ' لأن جوعك هو البرهان على انك متوقف بكلـّيتك على الطعام وعلى ان حياتك هي في الطعام . فآمن آدم وأكل ، امـــا المسيح فقد رفض التجربـة وقال : **ليس بالخـــبز وحده يحيـا الانسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله** . لقد رفض تلك الكذبـة الكونية التي فرضها الشيطان على العـالم والتي جعلها حقيقة بديهية لا جدال فيها

بعده جاعلاً منها الاساس لنظرتنا العالميه كلها : للعلم والطب وربما حتى للدين. وبرفضه ، اعاد المسيح تلك العلاقة بين الطعام والحياة والله التي كسرها آدم والتي ما زلنا نكسرها كل يوم .

ما هو الصوم اذا بالنسبة لنا نحن المسيحيين ؟ انه دخولنا ومشاركتنا في خبرة المسيح التي بها حررنا من الاعتماد الكلي على الطعام والمادةوالعالم . ولكن تحريرنا ليس كاملا . فما دمنا في هذا العالم الساقط ، عالم آدم القديم ـ ونحن جزء منه ـ نبقى معتمدين على الطعام . ولكن كما ان موتنا ـ الذي فرض علينا ان نمر به ـ قد اصبح بموت المسيح ممراً الى الحياة ، كذلك الطعام الذي نأكله والحياة التي يشددها ، يمكنها ان تكون حياة في الله ومن أجل الله . ان جزأ من طعامنا قد اصبح طعام الابدية اي جسد المسيح نفسه ودمه . حتى الخبز اليومي والذي نأخذهمن الله ، يمكن ان يكون في هذه الحياة وفي هذا العالم شركة لنا مع الله بدل ان يفصلنا عنه . وليس هناك الا الصوم الذي يمكنه ان يقوم بهذا التحوّل ، معطياً ايانا البرهان الوجودي على ان اعتمادنا على الطعام والمادة ليس كليا وليس مطلقا . واذ يقترن الصوم بالصلاة والنعمة والعبادة يمكنه نفسه ان يصير روحيا .

كل هذا يعني ان الصوم ، اذا فهم بعمق ، هو الطريق الوحيد الذي بواسطته يستعيد الانسان طبيعته الروحية الحقيقية . انه التحدي العملي وليس النظري للكذاب الكبير الذي استطاع ان يقنعنا اننا نقوم على الخبز وحده وقد بنينا المعرفة البشرية وركزنا علمنا ووجودنا على تلك الكذبة . الصوم هو الادانة لتلك الكذبة والبرهان ايضاً على انها كذبة . انه لمهم جداً انندرك انالمسيح ، عندما كان صائماً،واجه الشيطان وقد قال لنا فيمابعد انه لايُغلب « الا بالصلاة والصوم ». فالصوم هو العراك الحقيقي ضد الشيطان لانه التحدي لذلك القانون الشمولي الذي يجعلُه « رئيس هذا العالم » . فاذا كان الانسان جائعاً واكتشف ان باستطاعته ان يكون مستقلاً فعلاً عن هذا الجوع وان لا يهلك به بل على النقيض ان يحوله الى نصر والى نبع طاقة روحية ، ساعتها لا يبقى شيء من تلك الكذبة

الكبرى التي كنا نعيش فيها منذ آدم .

اين نحن الآن من الصوم الاصيل ؟ كم نحن بعيدون الآن عن مفهوم الصوم كمجرد تغيير في نظام الطعام ، لما هو مسموح ولما هو ممنوع . كم نحن بعيدون عن هذه المراءاة الخارجية ؟ بالنهاية ، ان نصوم تعني شيئاً واحداً ، ان نجوع ، ان نذهب الى آخر حدود الوضع الانساني الذي يعتمد كلياً على الطعام . وعندما نجوع ، نكتشف ان هذا الاعتماد ليس الحقيقة كلها حول الانسان وان الجوع نفسه هو بالدرجة الاولى حالة روحية وانه في الاعماق جوع لله . لقد عنى الصوم دائماً في الكنيسة الاولى امتناعاً كلياً ، حالة جوع ودفعاً للجسد الى اقصى الحدود . وهنا بالضبط نكتشف ايضاً ان الصوم كجهد جسدي لا معنى له البتة بدون الجهد الروحي : « بالصلاة والصوم » . هذا يعني انه بدون الجهد الروحي المرافق ، بدون ان نغذّي انفسنا بالحقيقة الالهية ، بدون ان نكتشف اعتمادنا الكلي على الله وعلى الله وحده ، يكون الصوم الجسدي عندئذ بالحقيقة انتحارا. واذا كان المسيح نفسه قد جرّب اثناء الصيام ، فهذا يعني انه لا مفر لنا نحن من تلك التجربة ، فالصوم الجسدي ، رغم ضرورته ، يصبح بلا معنى لا بل خطرا اذا انفصل عن الجهد الروحي ، عن الصلاة والتركيز على الله . الصوم فن ملكه القديسون بكليته . وانه لخطر علينا ولادعاء كبير لو حاولنا ممارسة هذا الفن بدون حذر او تمييز . فالخدم الصيامية كلها تذكّرنا دائماً بالصعوبات والعثرات والتجارب التي تنتظر اولئك الذين قد يفكرون بالاعتماد على قوة ارادتهم وليس على الله .

ولهذا السبب نحن نحتاج بالدرجة الاولى الى تهيئة روحية للجهاد الصيامي بأن نطلب العون من الله وان نجعل صومنا مركزاً على الله . علينا ان نصوم من اجل الله ، كما علينا ان نكتشف جسدنا هيكلا لحضوره ، وان نستعيد الاحترام الديني للجسد وللطعام ولوقع الحياة نفسها . كل هذا واجب ان نقوم به قبل البدء الفعلي بالصوم ، حتى اذا بدأناه نكون مزودين بالاسلحة الروحية وبرؤيا الجهاد والنصر .

بعدها يأتي الصوم نفسه . وانسجاماً مع ما قلناه سابقاً ، يجب ان نمارسه على صعيدين :

اولاً كصوم **نسكي** وثانياً كصوم **كلي** . فالصوم **النسكي** يقوم على تقليل هائل للطعام حتى وكما يقال قوت ولا يموت .. نعيش باستمرار نوعاً من الجوع يكون مذكراً لنا بالله ودعماً ثانياً ليبقى فكرنا في الله . وكل من مارسه – ولو قليلا – يعرف ان هذا الصوم النسكي بدل ان يُضعفنا ، يجعلنا منتبهين رضيين،مشرقين، انقياء وفرحين . في هـــذا الصوم يتناول المرء الطعام كهبة حقيقية من الله ، ويركز فكره دائماً في العالم الداخلي الذي يصبح بدوره بطريقة لا تفسرّ نوعـا من الطعام . وفيه نحن لسنا بحاجة ان نحدد بدقة كمية الطعام التي نأكلها او عدد الوجبات او صفتها . كل هذا يتعلق بقدرتنا الشخصية واوضاعنا الحياتية . ولكن المبدأ واضح : انه حالة نصف – جـــوع ، تتحول طبيعته « **السلبية** » دائماً ، بالصلاة والذاكرة والانتباه والتركيز ، الى قوة ايجابية . اما بالنسبة للصـوم الكلي ، فيجب بالضرورة ان تتحدد مدتـه وان يتوافق مـــع الافخارستيا . افضل طريقة في وضعنا الحالي ، هي ان نصوم في النهار قبل الاشتراك بالقداس البروجزماني ، من الصباح او من الظهر لا فارق ، المهـم هنا هو ان نعيش اليوم كلّه كيوم ارتقاب ورجاء وجوع لله نفسه . انه تركيز روحي على الهبـة التي سنأخذ،على الذي يأتي والذي من اجله يستغني المرء عن جميع المواهب الاخرى .

بعد ما قلنا كل هذا ، على المرء ان يتذكر ان الصوم،ولو كان وقته محدوداً ، فان صمنـــاه حقيقة يقودنا الى التجربة والضعف والشك والغضب . او بكلمة سيكون عراكاً حقيقيـاً وقد نسقط مراراً كثيرة . ولكن اكتشاف الحيـــاة المسيحية كعراك وجهاد هو **الطابع الجوهري للصوم** . والايمان الذي لم يتغلّب على الشك والتجربة لا يستحق ان يدعى ايماناً . ولا تقدّم في الحياة المسيحية ، مع الاسف، بدون تجربة الفشل المرة . كثيرون يبداؤن الصوم بحماس ثم يتخلون

عنه بعد العـــثرة الأولى . أريد ان أقول انه عند هذه العثرة الأولى يبدأ المحك الحقيقي . فاذا كنا بعد ان نسقط ونستسلم لرغباتنا وشهواتنا نعود من جديد الى الصـوم دون ان نستسلم مهما تعددت السقطات ، فان صومنا آجـلا أم عاجـلا سيعطي ثماره الروحية . بين القداسة وبين السخرية الواهمة تقوم فضيلة **الصبر** الألهية . الصبر على انفسنا بالدرجة الاولى . فالقداسة لا نبلغها قفزاً بل خطوة خطوة وعلينا ان ندفع الثمن كاملاً لكل خطوة . ولذا من الأفضل والأضمن ان نبدأ بالحـد الأدنى ــ قليلا جداً فوق طاقتنا الطبيعية ــ وبعدها نحاول رويداً رويداً ان نضاعف جهدنا . اما اذا حاولنا في البداية ان نقفز عالياً جداً فسنقع الى الوراء ونكسر عظامنا .

وباختصار علينا ان نعود من الصوم الرمزي والاسمي ــ **الصـوم كفرض وعادة** ــ الى الصوم الحقيقي . ليكن الصوم محدوداً ومتواضعاً شرط ان يكون جديّاً وثابتـاً . ولنواجه بصدق قدرتنـــا الجسدية والروحية ونعمل بقدرها متذكرين ان لا صـوم بدون تحد لهذه القـدرة وبدون ان ندخل الى حياتنـــا البرهان الالهي من ان ما هو غير مستطاع عند الناس مستطاع عند الله .

٤ ــ « نمط الحياة الصيامي » :

ان حضور الصـلوات الطقسية والصيـــام وحتى الصلوات على مراحل منتظمة لا تستنفذ الجهـد الصيامي . او بالاحرى كي تكون هذه فاعـلة وذات معنى تحتاج الى ان تدعمها حياتنا كلها . تحتاج « لنمط حيـاة » لا يتعارض معها ولا يؤدي الى «انفصام» في الكيان. في الماضي وفي البلاد الارثوذكسية ،اعطي هذا الدعم من المجتمع نفسه . لقد كانت المجموعة المعقدة من العادات والتغييرات الخارجية ، التشريع والشعائر الخاصة والعامة تطلق عليها الكلمة الروسية *BYT* والتي تفسّر جزئياً « الحضارة او الثقافة *Culture* » الانكليزية . لقد قبل المجتمع

كله ، اثناء الصوم ، نمطاً معيناً من الحيــاة ، بعض القواعد التي ما زالت تذكّر أبناء ذلك المجتمع بالموسم الصيامي . في روسيا مثلا لا يستطيــع المرء ان ينسى الصوم ، على الأقل بسبب الرنين الصيامي الخاص لاجراس الكنائس . المسارح مغلقة وحتى في القديم كانت المحاكم توقف نشاطها ولكن من الواضح ان جميـع هذه المظاهر الخارجية بحد نفسها لا يمكنها ان تجبر الانسان على ان يتوب وان تكون حياته الدينيــة اكثر حيوية . ولكنها تخلق جواً معيناً ـ جواً صيامياً ـ يساعد المرء على ان يكون جهاده الصيامي اكثر سهولة . ونحن لضعفنا نحتـاج الى الارشادات والرموز والمذكرات الخارجية . ولكن هناك دائماً الخطر ان تصبح هذه غاية بحد ذاتها وبدل ان تكون مجرد مذكـّر تصبح في الاعتقاد الشعبي المحتوى الحقيقي للصوم . هذا الخطر قد ذكرناه سابقاً عندما تحدثنا عن العادات والشعائر الخارجية التي تحل محل الجهــد الشخصي الأصيــل . ولكن اذا فـُهمت فهماً صحيحاً كانت ربطاً متيناً يربط الجهد الروحي بالحياة كلها .

نحن الآن لا نعيش في مجتمع أرثوذكسي وبالتالي « المنـــاخ » الصيامي غير ممكن على الصعيد الأجتماعي . فبالصيام أو بدونه ، العــــالم الذي نعيش فيه ، ونحن جزء منه ، لا يتغير . والأمر يتطلب منا جهـداً جديـداً لنعيد التفكير بضرورة علاقة دينية بين « الخارجي » و « الداخلي » ومأســاة العلمنة الروحية هي أنها تدفعنا الى « انفصـــام » ديني حقيقي قاسمين حياتنـــا الى جزئين : الديني والدنيوي اللذين يصبحان أقل ترابطاً . نحن اذاً بحاجة الى جهد روحي كي ننقل هذه العــادات والمذكـّرات التقليدية التي هي وسائط جهدنا الصيامي . ننقلها كلها ضمن اطارين : ما نعمله في البيت وما نعمله خارج البيت .

يشكل البيت والعائلة في النظرة الأرثوذكسية المجال الرئيسي والأكثر أهمية في الحياة المسيحيـــة ، وفي تطبيق المبادىء المسيحية في الحياة اليومية . ففي البيت ، نمـط الحياة العائليــة وروحها وحده ، وليس المدرســة وحتى ليس

الكنيسة ، اللذان يطبعان نظر تنا الاساسية للعالم واللذان يعطياننا التوجيه الاساسي ، الامر الذي قد لا نعيه لفترة طويلة ولكنه يصبح بالنهاية العامل الحاسم . انراهب دوستويفسكي زوسيما في « الاخـوة كرامازوف » يقول : «الانسان الذي يستطيع منذ طفولته ان يتذكر الاشياء الحسنة ، يخلص في حياته كلها » . انه لمهم جداً ان نشير الى انه ابدى هذه الملاحظة بعدما تذكّر امه التي اخذته الى القداس البروجزماني ، الى تلك الخدمة الرائعة بترنيمتهاالفريدة: « لتستقم صلاتي كالبخور امامك ... » ان الجهد الرائع الذي يقوم اليوم في مدارسنا الاحدية في حقل التربية الدينية ، سيكون قليل الاهمية ما لم يتجذر في الحياة البيتية والعائلية . اذن ما يجب علينا ان نفعله اثناء الصوم في بيوتنا ؟ ما دمت لا استطيع ان اطرح هنا الحياة العائلية في جميع وجـوهها ، سأكتفي بالتركيز على وجه واحد منها .

كل واحد منا يوافق ولا شك ان نمط الحياة العائلية كلها قد تغير جذرياً بواسطة الراديو والتلفزيون ، ووسائط الاتصال الجماهيرية هذه متسربة اليوم الى حياتنا كلها . وليس على الانسان ان يخرج من بيته ليعرف ماذا يدور في الدنيا . ان العالم كله هو دائماً بمتناول يدي . شيئاً فشيئاً هذه الخبرة الاولية للعيش في العالم الداخلي ، لجمال هذا « الداخل » تختفي ببساطة من حضارتنا الحديثة. فأذا لم يكن التلفاز فهي الموسيقى . ما عادت الموسيقى امراً يمكن السماع اليه . انها تصبح بسرعة نوعاً من « الصوت الخلفي » اثناء المحادثة والقراءةوالكتابة الخ . بالواقع ان حاجة الانسان للموسيقى الدائمة يكشف عدم قدرة الانسان المعاصر للاستمتاع بالصمت ولكي يفهمه ليس كشيء سلبي ، كمجرد غياب، ولكن بالضبط كحضور و كشرط لكل حضور حقيقي . واذا كان المسيحيون قد عاشوا في الماضي الى حد كبير في عالم صامت اعطاهم هذه الفرصة للتركيز وللحياة الداخلية ، فان مسيحيي اليوم عليهم ان يعملوا جهداً خاصاً ليستعيدوا هذا البعد الاساسي للصمت الذي يستطيع وحده ان يضعنا امام الحقائق العليا . وهكذا فان

مشكلة الراديو والتلفزيون اثناء الصوم ليست مشكلة هامشية ولكنها من مختلف الوجوه قضية حياة او موت روحي. وعلى المرء ان يدرك ببساطة انه من المستحيل ان نقسم حياتنا بين « الحزن البهي » للصوم وعرض فيلم «آخر السهرة». ان هاتين الخبرتين لا ينسجمان مع بعضهما البعض وفي آخر الامر الواحد يقتل الآخر . واذا لم نعمل جهداً خاصاً فمن المرجح ان « الفيلم » سيغلب بالنهاية وليس العكس . و « عادة » اولى نقترحها هي ان نخفّف جداً من استعمال الراديو والتلفزيون اثناء الصوم . ونحن لا نتجاسر هنا ان نتوقع صوماً « كلياً » بل فقط صوماً « نسكياً » الذي يعني بالدرجة الاولى تغييراً وتقليلاً في الطعام. ولا خطأ مثلاً في ان نتابع مشاهدة الاخبار او بعض البرامج الجدية والمهمة او المغنية عقلياً وروحياً . مـا يجب ان نوقفه اثناء الصوم هو « ادمان » التلفزيون ـ ان يتحول الانسان الى صنم في كرسي والى عينين مسمرّتين على الشاشة ، يقبل سلبياً اي شيء يأتي منها . اتذكر عندما كنت طفلا (قبل ان يخترع التلفاز) كانت امي تقفل البيانو اثناء الاسابيع الاول والثاني والسابع من الصوم . وانا اتذكر هذا الامر بحيوية اكثر مما اتذكر الخدم الصيامية الطويلة وحتى الآن الاستماع للراديو في الصوم هو بالنسبة لي لعنة تقريباً . وهذه الذكرى الشخصية هي فقط لتوضيح ما تستطيع التغييرات الخارجية ان تفعله في نفس الطفل . ومـا يهمنا هنا ليس عادة او قاعدة منفردة بل اختبار الصوم كفترة خاصة ، كأمر حاضر دائماً يجب الا نفقده او نشوهه او نحطّمه . هنا ايضاً ، كما في الصوم ، مجرد الامتناع غير كاف اذ يجب ان يرافقه نظيره الايجابي .

ان الصمت الذي يخلقه غياب ضجيج العالم الذي تحدثه وسائل الاتصال الجماهيرية ، يجب ان نعطيه محتوى ايجابياً . فـاذا كانت الصلاة تغذي نفوسنا ، كذلك عقل الانسان بحاجة ايضاً الى غـذائه لان عقل الانسان هو الذي تحطمه اليوم بلا هوادة مطارق التلفزيون والراديو والجرائد والمجلات المصورة الخ ... ما نقترحه اذن بالاضافة الى الجهد الروحي المحض ، هو الجهد العقلي ايضاً . كم من

الاعمال والروائع التي انتجها الفكر الانساني المبدع والخــلاق نهمل في حياتنا وذلك لانه من الاسهل عندما نعود الى بيوتنا مرهقين جسدياً وفكرياً ان ندير مفتاح التلفزيون او ان نغرق في فراغ جريــدة مصورة . ولكن لنفترض اننا نريد ان نهيء صومنا . الا نحضر مسبقاً لائحة من الكتب لنقرأها خلال الصوم ؟ ليس من الضروري ان تكون جميع هــذه الكتب دينية وليس جميع الناس مدعويين ان يكونوا لاهوتيين . ولكن هناك كثير من الفكر « اللاهوتي »تحويه بعض الروائع الادبية . كل ما يغني الفكر وثمـار العقل الانساني المبدع ، كلها تباركها الكنيسة ، واذا استعمل بطريقة صحيحة يأخذ قيمة روحية فريدة . لقد ذكرت في الفصل السابق ان الاحدين الرابع والخامس مخصصان لذكرى معلمين عظيمين للروحانية المسيحية هما : القديس يوحنا" السلمّي ومريم المصرية. لنفهم هذا كاشارة عريضةان ماتريده الكنيسة منا ان نعمله اثناء الصوم هو ان نفتّش عن اغناء عالمنا الداخلي الفكري والروحي ، ان نقرأ ونتأمــل بتلك الامور التي تستطيع ان تُعيننا باستعادة عالمنا الداخلي وفرحه . هذا الفرح الذي نكتشفه ونحققه في الداخل وليس في الخارج ، لا يذيقنا اياه « العالم المعاصر » . وبدون هذا الفرح ، بدون ان نفهم الصوم كرحلة الى اعمـاق انسانيتنا ، يفقد الصوم معناه .

ثانياً ــ ماذا يمكن ان يعني الصوم اثناء الساعات الطوال التي نقضيها خارج البيت : نذهب الى عملنا ونجلس الى مـكاتبنا ، نهتم بواجباتنا الوظيفية ، نلقى زملاءنا واصدقاءنا ؟ بالرغم من اننا لا نستطيع هنا كما في اي مجـال آخر ، ان نعطي « وصفة » واضحة يمكننا ان نقدم بعض الاقتراحات العامـة . فالصوم هو بالدرجة الاولى الذي يقدم لنا الفرصة الفضلى لندرك الطابع السطحي الهائل لعلاقاتنا بالناس والاشياء والعمل . ان شعاراتنا « ابتسم دائماً » و «طول بالك» هي بالحقيقة « الوصايا » العظمى التي نحفظها فرحـين وهي تعني في منطقنا : لا تلتزم ، لا تسأل ، لا تعمّق علاقاتك بالناس ، حـافظ على قواعــد اللعبة التي

تجمع بين اللطافة واللامبالاة ، فكـّر بكل شيء من منظار الربـح المـادي والاستفادة والترقي ـ او بكلمة اخرى ، كن جزأ من هـذا العالم الذي يستعمل دائماً الكلمات الطنانة « حرية » « مسؤولية » « اهتمام » .. الخ .. ويتبع **عملياً** المبدأ المادي القائـل ان الانسان هو ما يأكل ـ الصوم زمن التفتيش عن **معنى** معنى وظيفتي من منظار كونها دعوة . معنى علاقـتي بالناس الآخرين ، معنى الصداقة ومعنى مسؤوليتي . ليس هناك من عمل او دعوة لا يمكن ان «نحولها» ـ ولو قليلاً ـ ليس ان تصبح اكثر تنظيماً او اكثر فعالية وانمـا اكثر رقياً في القيم الانسانية . ان ما نحتاجه هو ان نجعل جميع علاقاتنـا اكثر « صميمية » لاننا قد اصبحنا ونحن الكائنـات البشرية الحرة (وبدون ان ندرك غالبـاً) أسرى النظم التي تشوه العالم تدريجياً وتجعله لا انسانياً . واذا كان لايماننـا من معنى فيجب ان يرتبط بالحياة بكل تعقيدها ، يعتقد الآلاف من الناس ان التغيرات الضرورية تأتي فقط من الخـارج ، من الثورات وتغيير الظروف الخارجية . ولكن دورنا نحن المسيحيين ان نبرهن انه بالواقع كل شيء يأتي من **الداخل** ، من الايمان ومن الحياة وفقـاً لهذا الايمان . ان الكنيسة عندمـا دخلت العالم اليونرماني ، لم تدن العبودية ولم تدع الى ثورة . ان ايمانها ورؤيتها الجديدة للحياة والانسان هي التي جعلت تدريجيـاً العبودية مستحيلة . ان « قديساً » واحداً ـ والقديس هنا يعني ببساطة انسان يعش ايمانه بجدية دائماً ـ يعمل على تغيير العالم اكثر من الف برنامج مطبوع . القديس هو الثوري الحقيقي الوحيد في هذا العالم .

وأخيراً ، وهذه هي ملاحظتي العامة النهائيـة ، الصوم هو الوقت الذي نراقب فيه كلامنا . ان عالمنـا هو كلامي بطريقة غريبة ، ونحن نغرق دائماً بطوفان من الكلام الذي فقد معناه وبالتالي قوته . والمسيحية تكشف قدسية الكلمة التي هي بالحقيقة هبة الهية للانسان . ولهذا السبب لكلامنا قوة هائـلة سلبية ام ايجابيـة ولهذا السبب نفسه سنحاسب على كل كلمة من كلماتنـا . « ولكن اقول لكم ان كل كلمة بطالة يتكلم بها النـاس سوف يعطون عنها

حساباً يوم الدين . لأن بكلامك تتبرّر وبكلامك تدان ، (متى ١٢ : ٣٦ - ٣٧) . ان نراقب الكلام يعني ان نستعيد جديته وقدسيته ، ان نفهم انه احياناً « نكتة » بريئة نطلقها بدون تفكير قد تؤدي الى كارثة ـ قد تكون القشة الاخيرة التي تسحق الانسان وتدفعه الى عمق اليأس والخراب . ولكن يمكن للكلمة ان تكون شهادة . ان حديثاً عرضياً في المكتب مع زميل ، يمكنه ان يكون اكثر فعالية في ايصال رؤيا حياتية او موقف تجاه الاخرين او تجاه العمل خيراً من اية عظة رسمية . ان هذا الحديث قد يلقي بذار سؤال ، او امكانية اعطاء وجهة نظر مختلفة في الحياة او الرغبة في معرفة افضل . اننا لا نستطيع ان ندرك بالواقع كيف نؤثر دائماً في بعضنا بعضاً بكلماتنا او «بوقع» شخصيتنا . وبالنهاية يهتدي الناس لله ليس لأن فلاناً كان قادراً على اعطاء شرح رائع ، بل لأنهم رأوا فيه النور والفرح والعمق والجدية والمحبة التي تكشف وحدها حضور الله وقدرته في العالم .

وهكذا كان الصوم ، كما قلنا في البداية ، ان يستعيد الانسان ايمانه ، فهو ايضاً ان يستعيد الحياة ومعناها الالهي وعمقها المقدس . انه بالامتناع عن الطعام نكتشف حلاوة الحياة ونتعلم ثانية كيف نقتبلها من الله بفرح وعرفان للجميل. و « بتخفيف » الموسيقى والتسلية والثرثرة واللقاءات السطحية ، نكتشف القمة النهائية للعلاقات الانسانية ، والعمل الانساني والفن الانساني . نكتشف هذا كله لاننا ببساطة نكتشف **الله نفسه** ، ولاننا نعود اليه وبه الى كل ما اعطانا برحمته ومحبته اللامتناهية . وهكذا نرنم في سحر الفصح :

« ان البرايا بأسرها قد استوعبت الآن نوراً ، السماء والارض وما تحت الثرى ، فلتعيد اذاً الخليقة جميعها ، لقيامة المسيح التي بها نتشدد » .

من الأودية الثالثة لقانون الفصح

فلا تحرمنا من هذا الرجاء يا محب البشر .

ملحق

« القدسات للقديسين »

بعض الملاحظات حول المناولة

١ ـــ سؤال اساســـي وملـــح :

ان الاسئلة والمباحثات التي تدور كثيراً حول المناولة المتواترة ، وعلاقـــة المناولة بالتوبة والاعتراف ، ومعنى التوبة وجوهرها ليست علامـة ضعف في كنيستنا اليوم او انحطاطاً روحياً بل على العكس علامة نهضة وحيـاة . لم يعد باستطاعتنا ان ننكر انه ينمو في اوساط شعبنا الارثوذكسي اهتمام متزايـــد بالامور الجوهرية ، وعطش وجوع لحياة روحية افضل . ومن اجل هذا علينا ان نرفع الشكر لله . واذا كان البعض يفكرون ان هناك ازمة ويعتبرون ان كل تساؤل وكل تعمق للوعي الروحي هو دائماً وبلا محالة ازمة ، فأهلاً بالأزمـة التي جاءت في وقتها . ومن الخطأ وبالحقيقـة مستحيل ان نحاول حلـّها بطرق ادارية او بمناشير او حرمـــانات . ما نواجهه اليوم هو سؤال روحي حاسم ومرتبط نهائياً بجميع مظاهر حياتنا ، وأضيف بمصير الارثوذكسية نفسهـا في عالمنا « المعاصر » المضطرب الذي هو عالمنا .

والانسان الذي فقد احساسه والاعمى روحيـــاً فقط هو الذي ينكر ان الكنيسة ، برغم نجاحها النسبي وانجازاتها ، الخارجية والمادية بالدرجة الاولى ،

هي مهددة بخطر ينمو من الداخل وهو العلمنة . ما هي العلمنة ؟ في مقال نشرته منذ سنوات حاولت ان اعرّفها كما يلي :

... رؤيا للعالم وبالتالي طريقة حياة تنظر للامور الاساسية في الحياة ـ كالعائلة والتربية والعلم والمهنة والفن الخ ـ ليس فقط كغير متجذرة وغير مرتبطة بالايمان الديني ، بل تنكر ايضاً ضرورة هذا الرباط او حتى امكانيته . ان مناطق الحياة المعلمنة يُنظر اليها كمستقلة وقائمة بحد ذاتها ، تحكمها قيمها ومبادؤها ومحركاتها الخاصة المختلفة عن القيم الدينية . العلمنة هي مشتركة بين الحضارات المعاصرة في كل مكان ، ولكن ميزة فرعها الاميركي ، الفرع الذي يهمنا الآن ، هو ان العلمنة في اميركا ليست بالكلية ضد الدين وليست ملحدة بل على العكس تتضمن كعنصر اساسي تقريباً رأياً معيناً في الدين يمكن ان نسميه بالواقع « دينياً » . انها « فلسفة للدين » كما انها ايضاً «فلسفة في الحياة» . وان مجتمعاً معادياً علناً للدين كما هي الحال في الصين الشعبية او في روسيا لا يمكن ان نسميه « علمانياً » . الدين عندهم هو عدو يجب ان يُسحق وكل مهادنة معه في افضل الاحوال ليست الاّ وقتية . ولكن الطابع المميز للحضارة الاميركية و « طريقة حياتها » هي انها تقبل الدين كأمر جوهري للانسان وتنكره كرؤيا متكاملة للعالم تطبع الوجود الانساني بكليته .

يمكن للعلماني الاميركي ان يكون « متديناً » مرتبطاً بكنيسته ، مواظباً على الخدم ، سخياً في مساهمته ومنضبطاً في مواعيد الصلوات . يعقد زواجه في الكنيسة ويطلب ان يبارك بيته بالمياه المقدسة ويقوم بجميع واجباته الدينية ـ كل هذا يعمله بانسجام كامل مع ايمانه . ولكن هذا كله لا يؤثر مطلقاً في فهمه لمظاهر حياته كلها ـ الزواج والعائلة ، البيت والوظيفة وبالنهاية واجباته الدينية نفسها ـ هذا الفهم الذي لا ينبع من دستور الايمان الذي يتلوه في الكنيسة ولا من ايمانه بتجسد المسيح وموته وقيامته ولكن من « فلسفات

الحياة » اي من افكار ومعتقدات ليس لها بالواقع اية علاقة بذلك الدستور، هذا اذا لم تتعارض معه . ما على المرء الا ان يعدّد بعضاً مـــن « القيم ـ المفاتيح » لحضارتنا ـ النجاح ، الامان ، الوضع الاجتماعي ، المزاحمة ، المنفعة ، الجـاه ، الطموح ... ـ حتى يدرك انهـــا في الطرف النقيض للاخلاقية النابعـــة من الانجيل وروحانيتها ...

ولكن هل يعني هذا ان ذلك العلمــاني المتدين نفعي ، مرائي ، او منفصم الشخصية ؟ كلا على الاطـــلاق . بـل يعني ان فهمه للدين متجذر في نظريته العلمانية للعالم وليس على النقيض (اي ان نظرته للعـــالم متجذرة في الدين) . اما في مجتمع غير علمـاني ، النمط الوحيد الذي عرفته الارثوذكسية في الماضي هو المجتمع الذي يشكل فيه الدين وقيمه المحك الاخـير لحيـــاة الانسان كلّها والمقياس الاخير الذي به يُقيّم الانسان والمجتمع والحضـارة حتى ولو انحرفت دائمـاً عن الدين. قد يعيش الارثوذكس تحرّكم الدوافع الدنيوية نفسها، ولكن الدين يتحداهم دائماً ولو بحضوره السلبي . وهكذا يمكن « لطريقة الحيـاة » الاّ تكون دينية بالرغم من ان « فلسفة الحياة هي بالتأكيد دينية . اما في المجتمع العلماني فما يحصل هو العكس : » طريقة الحياة « تتضمن الدين ، امــا فلسفة الحياة » فترفضها .

والقبول بالعلمنة يعني بالضبط تحولاً جذرياً في الدين نفسه . يمكن للدين ان يحافظ على جميع مظاهره وأشكاله التقليدية ولكنه من الداخـــل يصبح ديناً مختلفاً . عندما « توافق » العلمنة على الدين وتعطيه مكان الشرف في الحيـــاة الاجتماعية ، فهي تفعل هذا بقدر ما يقبل الدين نفسه ان يصبح جزءاً من رؤيا العالم العلمانية ،مصادقاً لقيمها ومساعداً لها في تحقيق هذه القيم . وكلمة «مساعدة» هي الاكثر استعمالاً عند العلمانيين في تعاملهم مع الدين . انه « امر يساعـــد » ان ينتمي المرء لجماعة دينية ، ولتقليد ديني معيّن ،ان يكون نشيطاً في الكنيسة ،

ان يصلي . وباختصار « انه امر يساعد » ان يكون للانسان دين . وبما ان الدين يساعد وبمـــا ان له دوراً مفيداً الى هذه الدرجة في الحيـــاة الشخصية والاجتماعية فيجب ان نساعده بدورنا . ومن هنا يأتي النجاح الملاحظ للدين في اميركا ، الامر الذي تؤيده جميع الاحصاءات . ان العلمنة تقبل الدين ولكن من خلال منظارها . انها تعطي للدين دوراً ما شرط ان يقبل الدين هـــذا الدور وينجزه وهي بالتالي تغمر الدين بالغنى والشرف والمجد . ولقد كتب و.هربرغ W. Herberg تبدو امـــيركا في الوقت نفسه انها أكثر الامم تديناً وأكثرهم علمنة » . وكل مظهر من الحياة الدينية المعاصرة يعكس هـذا التناقض : علمنة تعمّ وسط تدين صاعد ... »★

تتضمن هذه الملاحظات مقاطع من تقريري « حول الاعتراف والمناولة » الذي رفعته الى المجمـــع المقدس للكنيسة الارثوذكسية في اميركا وقد صادق عليه في ١٧ شبـــاط ١٩٧١ . وقد طبـع هـــذا التقرير مع القرار في وثائق المجمع .

٢ ــ الديانة اللادينيـــة

ان هذه العلمنة الاميركية التي يوحدهـــا ببساطة ، كثير من الارثوذكس خطأ مع « طريقة الحياة الاميركيـة » هي اساس الازمـة الروحيـــة العميقة للارثوذكسية . وهذه الازمة هي اكثر وضوحاً في هـــذه « الديانة اللادينية » التي بدأت تتسرب الى حياتنا الكنسية . ان تحويـــل الكنيسة الى اهتمامات ومشاغل مادية وتنظيمية وتشريعية على حساب ما هو ديني وروحي ، الهـوس « بالملكية » والمال والدفاع عن «حقوق الرعية» ضد الاساقفة والكهنة وكأنهم يهددونها من الخارج ، اللامبالاة بعمل الكنيسة التبشيري والتربوي والخـيري ، المقاومة السلبية ، واحياناً العملية لكل جهد لتعميق الحياة الروحية والليتورجية وجعلها اكثر عمقـــاً وحقيقية ، مماثلة الدين بالفلكلور والعادات القوميـــة ، الانركزية والعزلة العملية لكثير من رعايانا ، عـدم الاهتمام بحاجـات الكنيسة الحيوية عموماً ولبشارتها في اميركا ، كل هذا يكشف علمنة عميقة لوعي الكنيسة حتى ان المرء يصبح خائفاً وقلقاً على مستقبل الكنيسة التي لا تدرك قيادتهـــا واعضاؤها معاً مدى هذه الازمة وعمقها .

وعلمنة الكنيسة هذه هي التي تسبب بالضبط لكثيرين ، وخاصة للشباب ، هجرة الكنيسة التي لا يكشف لهم أحد جوهرها الحقيقي وحياتها وماذا يعني ان يكون المرء عضواً فيها ، التي فيها بالجهد يسمع المرء الدعوة لتعميق الحيـاة الروحيـــة ، والتي فيها يحوّل الروحي الى الحد الادنى من « الشكليـــات » (مناولة مرة في السنة ، بعض صيام ، وبعض امتناع عن التسلية) بينما يطور ما هو مادي وخارجي الى الحد الاقصى .

كل هذا يحصل ويتطور في وقت مدعوون فيه نحن الارثوذكس لبدء حياة جديدة ، وبينما الامكانية معطاة لنا ــ وكثيرون من اخوتنا محرومون منها في « الكنائس ــ الأم » ــ لننمو ونكون احراراً ليس فقط بالكلام بل بالفعـــل

ولنملأ كنائسنا بنهضة روحية وننجز كل ما لم يستطع للاسف ان يتممه اخوتنا الارثوذكس العائشون في ظل اوضاع رهيبة لحكومات مستبدة ملحدة علناً . أليس هذا مأساوياً اذاً ان نملك هذه النعم كلها وان تكون انجازاتنا ضئيلة ، وان تكون بنية كنائسنا والروح السائد فيها مُعطّلين عملياً لنمو حياة روحية اصيلة ؟ .

٣ ــ لماذا الاسرار ؟

لقد بدأت هذه الملاحظات ببعض الاشارات العامة لوضع الكنيسة الحاضر بسبب قناعتي العميقة ان الاهتمام الجديد بالاسرار ، بالممارسة السرية ونظامها، ينبع من هذه الازمة ومرتبط رأساً بها . أنا مقتنع ان مسألةمشاركة العلمانيين بالاسرار الالهية هي بالواقع السؤال ــ المفتاح لحياتنا الكنيسة .وعلى حلّ هذه المسألة يتوقف بالنهاية مستقبل الكنيسة وتجديدها الاصيل من انحطاطها المحتوم .

انني مقتنع ايضاً انه حيث تصبح الافخارستيا والمناولة على حد تعبير المرحوم الاب سرجيوس Cetverikov ستفركوف مركز الحياة المسيحية « عندها نستطيع ان نتغلب على العثرات التي ذكرناها سابقاً ونصححها».وهذا بالتأكيد ليس عرضاً. لأنه ما لم ترتكز الحياة المسيحية قبل كل شيء على المسيح ــ وهذا يعني شركة دائمة وحيّة مع المسيح في سر حضوره ــ سينبعثُ شيء آخر « ليستقطب » اهتمامات الرعية ونشاطاتها ويسيطر عليها. قد تصبح «الملكية» او العرقية الثقافية السطحية او ببساطة النجاح المادي، الغاية الاخيرة للرعية.. ان لم يكن المسيح فسيكون شيء آخر ــ دنيوياً او حتى اثيماً ــ الذي سيطبع بالضرورة حياة الكنيسة ويفككها .

حتى وقت قريب كان من الممكن ألا ندرك إلحاحية السؤال « ان نكون

او لا نكون . بالواقع انه خلال فترة الهجرة الطويلة من تاريخ الارثوذكسية في اميركا ، كانت رعايانا ، بالاضافـة الى دورهـا الديني المحض ، تلعب دوراً علمانياً وقاعدياً واضحاً قوامه : العنصر والقومية واللغـة . لقد كانت هـذه الاشكال والوسائط الضرورية لتوحيد المهاجرين المحتاجين لكينونة جماعية لمجرّد البقاء في المجتمع الاميركي الذي كان في البداية غريباً عنهم وحتى احياناً معادياً لهم. اما الآن ففترة الهجرة هذه تقترب سريعاً من نهايتها ، والاساس «الطبيعي» ـ العرقي واللغوي ـ لكنيستنا يتلاشى وعدد الارثوذكس الذين لا يفهمون الا الانكليزية يتكاثر ويتكاثر بشدة وفي بعض الرعايا نصف المؤمنين تقريباً هم من المهتدين الى الارثوذكسية ، وعندهـا يطرح السؤال : وما هو البديـل لهذا الاساس ؟ فاذا لم يكن واضحاً كفاية ان هذا البديل هو ايمان الكنيسة الرئيسي وخبرتها كوحدة وحياة ونمو في المسيح ، اي بالمحتوى الديني الاصيل للارثوذكسية ، عندها لا محالة ستبدأ الرعية والكنيسة نفسها طريقهـا البطيء نحـو التفكك والاضمحلال . واذا لم يتّحد الناس في امر ما ومن اجله فانهم سيتحدون ضد امر آخر . هنا تكمن مأ..ـاة وضعنا الحاضر الملحة وعمقها .

ولهذا السبب قضية الاسرار مهمة جداً . ففي الاسرار ، وفوق كل شيء في سر حضور المسيح (اي الافخارستيا) ووحدتنا به ومعه نستطيع ان نكتشف المبادىء الايجابية ، وليست السلبية ، التي تنقص بوضوح في كنيستنـا اليـوم . فيها وحدها ـ الاسـرار ـ تكمن جذور امكانيـة التغيير والتجديد في ذهن العلمانيين الذي كان منذ زمن بعيد منقطعاً عن منابع الكنيسة وخبرتها . واذا كانت هذه القضية قد اصبحت ملحة لهذه الدرجة في ايامنـا فلأنه يتكاثر عـدد الناس الذين يطلبون بوعي او بغير وعي ، هذا التجديد ، ويطلبون هذا الاساس الذي يستطيع وحده ان يساعد الكنيسة والرعية معـاً لاستعـادة عمقها الديني ووقف علمنتها السريعة .

انا ادرك انه يوجد بين الارثوذكس ميل لحل جميع المشاكل وجميع المسائل الصعبة والملتهبة بما فيها التي نعالجها هنا ـ اشتراك العلمانيين بالاسرار الالهية ـ بالرجوع ببساطة الى الماضي ، اي لما كان او ما يزال يجري لثلاثين وخمسين ومئة سنة خلت في روسيا واليونان وبولندة وصربيا وغيرها . ان هذا الميل لا يساعد كثيراً لا بل يضر احياناً . لا يساعد لانه ليس كل شيء في ذاك الماضي ، ولو كان في روسيا او اليونان او غيرها ، هو بحد ذاته ارثوذكسي حقاً . ولكي يدرك المرء هذا ، عليه ان يقرأ مثلاً ملاحظات المطارنة الروس في بداية هذا القرن عندما كانت الكنيسة الروسية تهيء مجمعها الوطني الذي تأخر كثيراً (عقد هذا المجمع سنة ١٩١٧ وانقطع بسبب العنف الثوري وتأجل سنة ١٩١٨ دون ان ينهي اعماله) . وقد اعلن المطارنة الروس وهم تقريباً عملياً وبدون استثناء ، المحافظون بلا هوادة وهم افضل المطارنة المثقفين في العالم الارثوذكسي كله ، ان وضع الكنيسة الروحي والليتورجي والبنيوي ضعيف جداً وبحاجة ماسة للاصلاح . اما بالنسبة للاهوت الروسي فقد أدان نخبة اللاهوتيين الممتازين بالاجماع استسلام هذا اللاهوت للسكولاستيك الغربي ومنطقه التشريعي وخاصة في قضية اللاهوت الاسراري الحاسمة . كما اقترح واحد من قادة الاساقفة الروس ، رئيس الاساقفة انطوني كرابوفيتسكي ، في تقريره الشهير المرفوع الى المجمع المقدس ، الهدم المادي للمدارس اللاهوتية الروسية واستبدالها باتجاه مختلف بالكلية للتربية الدينية . اما القديس الاب جان كرونشتادت فقد فضح وأدان بلا ملل تقوى المجتمع الروسي الشكلية والفاترة وتحويل المناولة الى واجب سنوي وتدني الحياة الكنسية الى مستوى العادات .

ان مجرد الرجوع والاشارة الى الماضي لا يكفي ، لان هذا الماضي نفسه بحاجة الى تقييم في ضوء التقليد الارثوذكسي الاصيل . والمقياس الوحيد دائماً وفي كل مكان هو التقليد نفسه وما على الرعاة الا ان يهتموا كيف يطبقونه في أوضاعنا التي تختلف جذرياً عن اوضاع الماضي .

٤ ــ القاعـــدة

ليس ضرورياً ان نطرح هنا موضوع اشتراك العلمانيين في الاسرار الالهيـة بكل مظاهره العقـــائدية والتاريخية . ما هو جوهري يمكن ان نختصره كما يـلي :

انه امر ثابت ولا جدال فيه ان مناولة جميع المؤمنـــين في كل قداس إلهي كانت قاعدة واضحة في الكنيسة الاولى ولكن ما يجب ان نشدد عليه هو ان هذه المناولة الجماعية والمنتظمة فُهمت وأختبرت ليس فقط كعمل تقوي وتقديس شخصي ، بل فوق كل شيء كعمل نابع من عضوية المرء في الكنيسة ، بالضبط كتحقيق وانجاز لهـــذه العضوية . لقد عُرّفت الافخارستيا وأختبرت كسر الكنيسة ، **وسرّ الجماعة وسر الوحدة .**

كتب يوحنا الذهبي الفم « أتحدَ ذاته بنا ، اذاب جسده فينا كي نؤلف كلاً ونكون جسداً متحداً بالرأس » . بالواقــــع لم تعرف الكنيسة الاولى اشارة اخرى او مقياساً للعضوية ما عدا الاشتراك في الاسرار « كان من المتعارف عليه ان الذي لا يتناول لاسابيع قليلة قد حَرم نفسه وفصلها عن جسد الكنيسة » ان مناولة جسد المسيح ودمه ، كانت الانجـــاز الواضح للمعمودية والميرون (التثبيت) ولم يكن هناك اي شرط آخر لاقتبال المنـاولة . وجميع الاسرار الباقية « تختم » بالاشتراك بالقدسات . وهذا الارتباط بين العضوية في الكنيسة والمناولة كان واضحاً لدرجة اننا نجد في النصوص الليتورجية الاولى ، صرف اولئك « الذين لا يحق لهم الاشتراك بالاسرار الالهية » قبل تقديس القرابين . ويجب ان يكون واضحاً عندنا ، مهما تعقدت وغمضت هذه الامور فيما بعد ،**أن** هذا الفهم والخبرة الاوليين للمناولة لم يطرحا مطلقاً ويبقيا الى الابـد القاعـدة الاساسية لتقليد الكنيسة .

على المرء اذاً ان يسأل ليس حول هذه القاعدة ولكن عما حلّ بها . لماذا نسيناها كلياً حتى ان مجرد ذكر مناولة اكثر تكراراً (اذا لم نقل منتظمة) تبدو لكثيرين (وخاصة الاكليروس) وكأنها تجديد لم يسمع به يهزّ حسب رأيهم اساسات الكنيسة وحتى يهدمها ؟ كيف كان ممكناً خلال قرون عديدة ان تسعاً من عشر افخارستيات اقيمت بدون اناس يتناولون ؟ لماذا هذا الامر الذي لا يصدق لا يثير اية دهشة او رعدة بينما الرغبة بالمناولة المتكررة تثير الخوف والمعارضة والمقاومة ؟ كيف يمكن لممارسة غريبة ، المناولة مرة في السنة ، تظهر في الكنيسة وتُعتبر « قاعدة » اي حياد عنها يعتبر شواذاً ؟ او بكلمة اخرى كيف اصبح فهم المناولة فردياً الى هذه الدرجة ومنفصلاً عن عقيدة الكنيسة كجسد المسيح ومتناقضاً بعمق مع الصلاة الشكرية (الافخارستية) نفسها ! . « ونحن جميعاً اذ قد اشتركنا بالخبز الواحد والكأس الواحدة ، اتحدنا بعضنا بعضاً في شركة الروح الواحد ... ؟

٥ ــ الانحطاط : اسبابه وأعذاره

الجواب المعتاد الذي يُعطى لهذه الاسئلة هو : اذا كانت العادة القديمة قد انقطعت ، يقول معارضو المناولة المتواترة او المنتظمة واذا كان من الضروري ان يدخل التمييز الجذري بين الكهنة الذين يتناولون باستمرار ـ وهذا بديهي انه جزء من خدمتهم ـ وبين العلمانيين الذين قد يقبلون للمناولة ببعض الشروط التي لم تعرفها الكنيسة الاولى ، واذا اصبحت على العموم مناولة العلمانيين شواذاً بدل من ان تكون قاعدة ، فهذا ناجم عن حرص شديد لقدسية المناولة مخافة تدنيس الاسرار اذ نتناول منها بغير استحقاق وهكذا نعرّض صلاحنا للخطر لأن الرسول بولس يقول : « لأن الذي يأكل ويشرب بدون استحقاق يأكل ويشرب دينونة لنفسه » (اكورنثوس ١١ : ٢٩) .

ولكن هذا الجواب ينبغي لنا ان نعطيه جواباً آخر لأنه عملياً يطرح اسئلة اخرى فتتعقد الاسئلة بشكل يصعب معها الحل .

اولاً حتى اذا كان صحيحاً ان حرمان العلمانيين عملياً de facto يعود الى هذا الخوف المخلّص وهذا الشعور بعدم الاستحقـــاق ، فهو بالتأكيد لم يعد صحيحاً اليوم . لأنه لو كان صحيحاً لشعر غير المتناولين ببعض الحزن على الاقل وهم يحضرون القداس الالهي ، لأسفوا على عدم استحقاقهم وعلى خطـــاياهم التي تفصلهم عن القدســـات ، لشعروا باختصار انهم « محرومون » من الكنيسة . ولكن بالواقع لا شيء من هذا. جيل بعد جيل من الارثوذكس يحضرون القداس بضمير طاهر ، مقتنعين كلياً ان شيئاً اكثر ليس مطلوباً منهم وان المنــــاولة ببساطة ليست لهم. وعندما يتناولون في تلك المرات القليـــلة والنـادرة فهم يتناولون « كإتمام فرض او واجب » وبهذه المناولة يعتبرون انفسهم مسيحيين ، لسنة جديدة كاملة « متممين واجباتهم » . فأين نجد في هـــذا الموقف ، الذي اصبح للاسف قاعدة في كنيستنا ، على الأقل اثراً ، للتواضع والتوبة والاحترام وخوف الله ؟

بالواقع ، في اول ظهور لهذا الموقف في الكنيسة ـ وقد حصل قليـــلاً بعد اهتداء الامبراطورية الرومانية الى المسيحية وبالتالي التنصير الجماهيري لشعوبها وانحدار المستوى الاخلاقي والروحي بين المسيحيين ـ رأى الآباء فيه نتيجـــة ليس للخوف والتواضـــع بـــل للاهمال والارتخاء الروحي . وكما أدانوا تأجيل المعمودية بسبب « عدم التهيئة » و « عدم الاستحقـــاق » كخطيئة ، كذلك حاربوا كل اهمال للاسرار . انه من المستحيل ان نجد نصاً آبائياً واحداً يدعم هذه الفكرة : اذا لم يستطع المرء ان يتناول باستحقاق ، من الافضل له ان يمتنع عن المناولة . لقد كتب القديس يوحنا كاسيان .

« يجب الا نتجنب المناولة بحجة الشعور اننا خاطئـون . علينا ان نتناول مراراً كثيرة من اجـل شفـاء النفس وتطهير الروح ، ولكن بتواضع وايمان معتبرين انفسنا غير مستحقين ... علينا ان نلتمس البلسم لجراحنـا وإلا فمن المستحيل ان نتناول مرة في السنة ، كما يفعل البعض ... معتبرين ان تقديس الاسرار السماوية متيسر فقط للقديسين . انـه من الافضل التفكير ان السر اذ يعطينا النعمة يطهرنا ويقدسنا. هؤلاء الناس يظهرون كبرياء اكثر من التواضع.. لأنهم عندما يتناولون ، يعتبرون انفسهم كمستحقين . من الافضل بكثير ان نتناول بتواضع قلب القرابين الطاهرة كل احد لشفاء امراضنا ومدركين اننا لن نكون مستحقين ابداً ، من ان يعمينا التكبر ونعتبر انـه بعد سنة سنصبح اكثر استحقاقاً لاقتبالها ...

« يعمينا التكبر » : هنا يضع القديس كاسيان بالحقيقة اصبعه على تلـك المقدرة الغريبة في جميع الاخطاء الروحية وهي ان تجد لنفسها « مبرراً » روحياً لتظهر ذاتها بمظهر التواضع الكاذب الذي هو اخبث شكل من اشـكال الكبرياء لا بل اخطره . وهكذا حسب شهادة الآباء الاجماعية ما قد بدأ كاهمـال يصبح سريعاً مُبرراً حجج روحية كاذبة ومن ثم رويداً فرويداً يقبل كقاعدة .

هكذ ظهرت مثلاً فكرة ـ غريبة ومجهولة كلياً في التقليد القـديم ـ انـه بالنسبة للمناولة يوجد فرق روحي لا بل سري Mystical بين الكهنة والعلمانيين فالأول بامكانهم لا بل من واجبهم ان يتناولوا مراراً بينما الآخرون غير مسموح لهم بذلك . هنا ايضاً علينا ان نستشهد مرة اخرى بالقديس يوحنا الذهبي الفم الذي دافع اكثر من اي انسان آخر عن الاسرار وقداستها مشدداً على التهيئـة المستحقة للمناولة . يقول الراعي الكبير :

« توجد حالات يجب الا نميز فيها الكاهن عن العلماني ، خاصة في الاقتراب من الأسرار الالهية نحن نأخذها جميعاً متساوين . وليس كما في العهد القديم حيث كان طعام الكهنة غير طعام الشعب ولا يحق لهـذا الاخير ان يشارك في ما هو للكاهـن . اما الآن فليس كذلك : للجميـع يقـدم الجسد نفسه والكأس نفسها ·

وبعد الف سنة يتحدث القديس نيقـولا كابازيلاس عـن المنـاولة في **شرحه للقداس الالهي** ، فلا يفرّق اطلاقاً بين الكهنة والعلمانيين بالنسبة للمناولة. يقول القديس : اذا كان لاحد الامكانية ويرفض الاشتراك بالوليمة الافخارستية، لن يحصل على التقديس الذي تعطيه الوليمة ـ . وهذا ليس بسبب عدم الاشتراك نفسه بل بسبب انه يمتلك الامكانية ويرفض الاشتراك ... كيف نستطيع ان نعتقد بمحبة هـذا الانسان الذي يمتلك المقـدرة على اقتبال القرابـين ولا يأخذها ؟ .

وبالرغم من هذه الشهادات الصريحة ، بقيت الفكرة الغريبة والهرطوقيـة وما تزال جزءاً ، ان لم يكن من تعليم كنيستنا ، فعلى الاقـل في تقواها الليتورجية ·

ان الانتصار الحقيقي لهذا الموقف تجاه المناولة جاء بعد انتهاء العصر الآبائي واختفاء الكمنولث البيزنطي (رابطة الشعوب البيزنطية) حيث دخل اللاهوت الارثوذكسي مرحلة « الاسر الغربي » Captity الطويـلة ، مرحـلة التغريب الجذرية Westernization . وتحت تأثير السكولاستيك الغربي والنظرة القانونية للاهوت الاسراري، بالرغم من ان الاسرار قد بقيت في الكنيسة، فما عاد ينظر اليها تلك النظرة وما عادت تختبر كمحققة للكنيسة او على حد تعبير الأب جورج

فلوروفسكي « كمؤسسة لها وبانية » . فمن جهة عندما اصبحت المناولة اداة للتقوى الشخصية والتقديس الفردي ومحرومة كلياً من معناها الكنسي ، بطلت بالتالي ان تكون العضوية في الكنيسة متجذرة ومقاسة بالاشتراك في سر وحدة الكنيسة وايمانها ومحبتها وحياتها .

عندها اصبح العلماني مُجبراً ، وليس فقط مسموح له ، على ان ينظر المناولة من منظار ذاتي كلياً - منظار حاجاته وروحانيته ، تهيئته او عدم تهيئته وامكانياته الخ ... لقد اصبح نفسه المقياس والحاكم لروحانيته ولروحانية الآخرين ايضاً . وقد اصبح كل هذا ضمن اطار لاهوت وتقوى تؤيد - بالرغم من الشهادة الواضحة والحقيقية للتقليد الارثوذكسي - عدم مناولة العلمانيين هذه وتجعلها قاعدة ، « ماركة مسجلة » تقريباً للارثوذكسية .

انها عجيبة بالفعل ان هذا الضغط المشترك للاهوت الاسراري الغربي وللتقوى خارج الكنيسة ، الفردية والذاتية لم ينجح في استئصال كل عطش وجوع للمناولة ، لشركة ليست شكلية وأسمية ، بل اصيله في حياة الكنيسة . ففي كل زمان ، وخاصة في ايامنا المضطربة والمعقدة ، كل نهضة ارثوذكسية تنبع من «اكتشاف» الاسرار والحياة الاسرارية ، وفوق كل شيء من النهضة الافخارستية . هذا ما حصل في روسيا عندما محت الاضطهادات المواقف الفاترة والشكلية والاسمية ، المواقف التي أدانها بحماس الأب يوحنا كرونشتادت . وهذا ما حصل ايضاً في اوروبا وفي الشرق الاوسط بظهور حركات الشبيبة الارثوذكسية بفهمها المتجدد والعميق للكنيسة . وهذا التجدد الافخارستي والاسراري يقرع اليوم ابواب كنيستنا ويجب ان يشددنا كعلامة ان ازمة « العلمنة » المشؤومة يمكن ان تقهر .

٦ ــ معنى المنــــاولة

« من يأكل ويشرب وهو على خلاف الاستحقاق انمـا يأكل ويشرب دينونة لنفسه اذ لم يميز جسد الرب (اكورنثوس ١١ : ٢٩) . الآن نستطيع ان نذكر كلمات الرسول بولس ونسأل أنفسنا عن معناهـــا الحقيقي . لم تفهم الكنيسة الاولى ولا الآباء كلمات الرسول ان البديل « للأكل والشرب بغير استحقاق » يكون في الامتناع عن المناولة ، وان احترام الاسرار والخـــوف من تدنيسها يجب ان يقود الى رفض القرابين الالهية .. من الواضح ان هـــذا لم يكن فكر الرسول نفسه ، لاننا نجد في الواقع ، في رسائله ، وتشجيعاته ، التعبير الاول للتناقض الظاهر الذي يشكل بالحقيقـة اساس « الاخـــلاق المسيحية ونبع الروحانية المسيحية .

يكتب بولس الرسول الى الكورنثيين قائلا « أوَمَا تعلمـــون ان اجسادكم هيكل الروح القدس وهو فيكم قـد نلتموه من الله ، وانكم لستم لانفسكم ؟ فقد اشتريتم وأُدّي الثمن . فمجدوا الله في اجسادكم » (اكورنثوس ٦ : ١٩ ــ ٢٠). ان هذه الكلمات هي خلاصة دعوة الرسول الدائمة للمسيحيين : علينا ان نعيش حسب « ما حدث » لنا في المسيح . نحن نعيش بالضبط بسبب ما حدث لنا ، بسبب اننا قد أُعطينا الخلاص والفـــداء والمصالحة والشراء بثمن ـ . ونحن « لسنا لانفسنا » . وبالضبط بما اننا مخلصون يمكننا ان نعمل من اجل خلاصنا . يجب علينا دائمـــاً وفي كل زمان ان **نكون ونحن ما نصبح عليه** في المسيح : « انتم للمسيح . والمسيح لله (اكورنثوس ٣ : ٢٢) .

ان لتعليم بولس الرسول هذا أهمية حاسمة للحياة المسيحيـة عامـة وللحياة الاسرارية خاصة . انه يكشف التوتر الجوهري الذي تقوم عليه حياتنـــا ،

والذي لا يمكن زحزحته لان هذا يعني اهمالاً للحياة المسيحية نفسها وتشويهاً جذرياً لها : ان التوتر هو في داخل كل منا من خلال موت معموديته وقيامتها. بين « الانسان القديم الفاسد بشهوات الجسد والانسان الجديد المتجدد على صورة خالقه » ،بين موهبة الحياة الجديدة وبين الجهد لتطبيقها وجعلها حقيقة تخص حياتنا بالذات ، بين الموهبة المعطاة بدون مكيال (يوحنا ٣ : ٣٤) وبين مكيال حياتي الروحية الناقص دائماً .

وعندها ندرك ان الثمار الاولى والجوهرية لكل حياة وروحانية مسيحية، الظاهرة بوضوح في القديسين ، هي الشعور والوعي لا لأي « استحقاق » بل لعدم « الاستحقاق » . فبقدر ما يقترب الانسان من الله بقدر ما يصبح مدركاً لعدم الاستحقاق الكياني لجميع الخلائق امام الله ولموهبة الله المجانية بالكلية . هذه الروحانية الاصيلة لا تنسجم مطلقاً مع فكرة « استحقاق » او اي شيء يمكن ان يجعلنا ، في نفسه ، وبحد ذاته ، « مستحقين » لتلك الموهبة . لقد كتب الرسول : « لأن المسيح ونحن بعد ضعفاء قد مات في الاوان عن المنافقين. ولا يكاد احد يموت عن بارّ ... اما الله فيدل على محبته لنا بأنه اذ كنا خطأة بعد ففي الاوان مات المسيح عنّا ... (رومية ٥ : ٦ ـ ٩) . ان « نقيس » تلك الموهبة بفضائلنا واستحقاقاتنا الذاتية فهذا يعني بداية الكبرياء الروحية التي هي بالحقيقة جوهر الخطيئة .

ومركز هذا التوتر ونبعه نجدهما في الحياة الاسرارية . وهنا اذ نقتبل القرابين الالهية نصبح واعين ايضاً وايضاً «للشبكة» الالهية التي وقعنا فيها والتي لا نجد فيها ، بالتفكير الانساني ومنطقه ، اي مهرب . لأنه اذا كان بسبب « عدم استحقاقي » امتنع عن المناولة، فهذا يعني اني ارفض موهبة الحب الالهية والمصالحة والحياة. انني احرم نفسي لانه « ان لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا

دمه فلا حياة لكم في انفسكم » (يوحنا ٦ : ٥٤) . فاذا كنت « آكل واشرب بدون استحقاق » فهذا يعني انني آكل وأشرب دينونـة لنفسي . وأنا مدان ان تناولت وان لم اتنـاول ، لأنه مَن منـا ، كان ابـداً « مستحقاً » ان يلمس النار الالهية ولا يحترق ؟ .

مرة اخرى نقول انه لا مهرب لنا من هذا « الفخ » عندما نحاول بتفكيرنا الانساني تطبيق المقاييس البشرية والعقلانية على الاسرار الالهيـة . انه لأمر مخيف روحياً ان نرى الاساقفة والكهنة والعلمانيين معـاً ، ومن الممكن ايضاً اوَلئك الذين يدّعون الخبرة في الامور الروحيه » ، يقبلون بسهولة وراحة ضمير الموقف الاسراري المعاصر كأنه موقف تقليدي واضح : هذا الموقف هو الذي يعتبر ان عضو الكنيسة « يتمم واجباته الدينية » اذا امتنع عن المناولة بسبب « عدم استحقاقه » واحداً وخمسين اسبوعاً ولكنه في الاسبـوع الثاني والخمسين اذ يطبق بعض القواعـد ويعترف ويأخذ الحـل بأربع دقائق يصبح فجأة « مستحقاً » ليعود فوراً بعد المناولة « لعدم استحقاقه » . انه لأمر مخيف حقاً لان هذه الحالة ترفض بوضوح ما يشكل المعنى الحقيقي للحياة المسيحية وصليبها وقد كشف لنا في الافخارستيا : استحالة تعديل المسيحية على قياسنا ومستوانا ، استحالة قبولها الا بشروط الله وليس بشروطنا .

ما هي هذه الشروط ؟ اننا لا نجد هذه الشروط مُعبراً عنها افضل مما نجده في الكلمات التي يلفظها الكاهن عند رفع القرابين والتي كانت في الكنيسة الاولى كلمات الدعوة للمناولة : « القدسـات للقديسين » . بهذه الكلمات وبجواب المؤمنين عليها « قدوس واحد ، رب واحد ، يسوع المسيح ...» ينتهي بالواقع كل تفكير بشري . القدسات اي جسد المسيح ودمـه هي فقط للقديسين . بيد ان احداً ليس بقديس الا الرب الواحد يسوع المسيـح . وهكذا على مستوى

« الاستحقاق » البشري، التعيس ، اذن فالباب مغلق . لا شيء ثمة نستطيع ان نقدمه ويمكن ان يجعلنا « مستحقين » للقرابين المقدسة الا قداسة المسيح نفسه التي منحنا اياها بمحبته ورحمته ، جاعلاً ايانا « شعباً مختاراً ، كهنوتاً ملوكياً ، امة مقدسة » . (بطرس ٢ : ٩) . انها قداسته وليست قداستنا التي تجعلنا قديسين وبالتالي « مستحقين » لاقتبال القرابين الالهية . لانه كما قال القديس نيقولا كابازيلاس في شرحه لهذه الكلمات : « لا قداسة لأحد بنفسه وليست هي نتيجة الفضيلة الانسانية ، بل كل الذين يملكونها فقد اخذوها به ومنه . كما لو وضعت مرايا متعددة تحت الشمس ، فهي تلمع وتشع نوراً بينما في الواقع هناك شمس واحدة فقط تضيئها جميعاً ... » .

هذا هو « التناقض » الجوهوي للحياة الاسرارية . ومن الخطأ ان نحددها بالاسرار فقط . ان خطيئة التدنيس التي يذكرها بولس الرسول عندما يتحدث عن « الاكل والشرب بدون استحقاق » تشمل الحياة كلها لان الحياة بكليتها والانسان بكليته نفساً وجسداً قد تقدس بالمسيح ونحن « لسنا لأنفسنا » . والسؤال الوحيد الموجه للانسان ، هل هو راض ومستعد ليتقبل بتواضع وطاعة هذه القداسة المعطاة له قبل كل شيء ، بمحبة وحرية كصليب ، الصَّليب الذي يسمر عليه الانسان القديم بمفاسده وشهواته والذي يدينه في كل آن والذي يعطيه قوة ونعمة ليحارب دائماً لنمو الانسان الجديد فيه وتلك الحياة الجديدة والمقدسة التي أُهِّل ان يكون مشتركاً بها ؟ نحن نقتبل القرابين الالهية لأن المسيح قدسنا فيه فقط ونحن نتناول لنصبح قديسين اي لنتمم موهبة القداسة في حياتنا . ان المرء « يأكل ويشرب بغير استحقاق » عندما يتناول ظاناً نفسه « مستحقاً » بقداسته الخاصة وليس بقداسة المسيح . او عندما يتناول دون ان يربط المناولة بالحياة كلها كديّانة لها وفي الوقت نفسه كقوة محوِّلة لها ، كغفران وأيضاً كدخول لا مفر منه في الطريق الضيق ، طريق الجهاد والنضال .

والمعنى الحقيقي **للتهيئة من اجل المناولة** هو ان ندرك ليس بعقولنا فقط ، بل بكامل كياننا هذا الذي قلناه ، وان يقودنا الى التوبة التي هي وحدهـا تفتح لنا ابواب الملكوت .

ـ ٧ معنى التهيئة للمنـاولة

ان التهيئة للمناولة في واقعنا الحالي المطبوع بطرق مختلفة بالمناولة «النادرة» تعني بالدرجة الاولى ان يتمم الراغب بالمناولة بعض المتطلبات والقواعد النظامية والروحية : الامتناع عن الاعمال والنشاطات المسموحة ، قراءة بعض القوانين والصلوات (صلاة المطالبسي) ، الامتناع عن الطعام من الصباح حتى المناولة الخ. ولكن قبل ان نأتي الى هـذه التهيئة بالمعنى الضيق للكلمة ، علينا ، في ضوء ما قلناه سابقاً ، ان نستعيد فكرة التهيئة بمعناها الواسع والعميق .

ان حياة المسيحي كلها هي ـ ويجب ان تكون ـ مثالياً بالضبط ، تهيئة من اجل المناولة كما هي ويجب ان تكون ثمار المناولة الروحية . « لك نودع كل رجائنا وكل حياتنا يا رب ... » . هذا ما نقوله في الصلاة التي تسبق المناولة . ان حياتنا كلها ، تقيسها وتدينها عضويتنـا في الكنيسة اي بمشاركتنا بجسد المسيح ودمه . وهذه المناولة ينبغي لها بنعمتها ان تملأ الحياة وتحوّلها. والنتيجة السيئة لممارستنا الحاضرة هي انها « تقطع » التهيئة للمناولة من الحيـاة نفسها وهكذ تجعل حياتنا اكثر وثنية واكثر انفصالا عن الايمان الذي نعلنه. فالمسيح لم يأت الينا لنخصص جزءاً ضئيلاً من حياتنا « لواجباتنا الدينية » انـه يطلب الانسان كله وحياته بكليتها . وقد ترك لنا سر الوحدة معه كي يطهر وجـودنا ويربط مظاهر حياتنا كلها به. المسيحي اذاً هو انسان يعيش بين مجيء المسيح بالجسد وبين عودته بمجد ليدين الاحياء والاموات ، بين افخارستيا وافخارستيا ـ سر التذكر وسر الرجاء والمشاركة المسبقة . لقد كان في الكنيسة الاولى وقعُ هذا الاشتراك بالافخارسيا ـ العيش في ذكرى المسيـح والترقب لمجيئه الثاني ـ الذي طبع الروحانية المسيحية واعطاها محتواها الحقيقي : الاشتراك ـ بالرغم

من عيشنا في هـــذا العالم ـ بالحيـاة الجديدة للعـــالم الذي سيأتي ، وتحويل « القديم » بـ « الجديـد »

وبطريقة عملية ان هذه التهيئة تعني بالدرجـــة الاولى ليس فقط وعي « المبادىء المسيحية » عامة ، بل بالضبط المناولة نفسها ، وعي ما قد تناولته ـ اي جسد المسيح ودمه ـ الذي يدين حياتي ويتحدّاني بالدعـوة التي لا مفر منها ان اكون ما قد صرته ، ووعي المناولة الآتية التي اتهيأ لها بقداسة الحياة فكراً وعملاً تهيئة يكتسب فيها الزمن نفسه ودقائق حياتي كلها أهمية جديدة ومعنى روحياً جديداً لا يمكن ان نكتسبه من وجهة نظر انسانيـة محضة وعلمانيـة . عندما سئل كاهن تقي كيف يمكن للمرء ان يعيش حياة مسيحية في العـــالم ، أجاب ببساطة : « بتذكر الغد ـ اوبعدغد او بعد عدة ايام. عندما سأتناول».

ومن أبسط الطرق لخلق بداية هذا الوعي ، هو ان ندخل في صلاتنا اليومية ، صلوات ما قبل المناولة وبعدها . نحن عادة نقرأ صلوات التهيئـة بالضبط قبل المناولة وصلاة الشكر رأساً بعدها ، وبعد القراءة نعود ببساطة الى حياتنـــا « الدنيوية » . ولكن ماذا يمنعنا من أن نقرأ قطعة او عدة قطع من صلاة الشكر في الايام الاولى من الاسبوع وان نقرأ صلاة المطالبسي في القسم الثاني من الاسبوع؟ اننا بعملنا هذا ندخل «وعي» السر الى حياتنا اليومية ، جاعلين مقياس حياتنا كلها القرابين المقدسة التي تناولناها في الاحد الماضي والتي سنتناولهـا في الاحد اللاحق . وهذا يشكل خطوة واحدة فقط ونحن بحاجة بعد الى اشياء اخرى وقبل كل شيء ان نكتشف حقيقة ـ بالوعظ والتعليم والارشاد ـ الافخارستيا نفسها كسرّ الكنيسة وبالتالي كالنبع نفسه لكل حياة مسيحية .

ويتمركز المستوى الثاني للتهيئة على فحص الذات الذي تحـدث عنه بولس الرسول : ... فليختبر الانسان نفسه وهكذا فليأكل من هذا الخبز ويشرب من هذه الكأس (اكورنثوس ١١ : ٢٨) . وغاية هذه التهيئة التي تقوم على الصوم والصلاة (صلاة قبل المنـــاولة) والصمت والتركيز الروحي الخ .. هو ، كما رأينا ســـابقاً ، ليس ان يعتبر الانسان نفسه « مستحقاً » ، بل ان تجعله يعي

بالضبط انه «غير مستحق» وان تقوده الى التوبة الحقيقية. والتوبة هي كل هذا : ان يرى الانسان خطاياه وضعفه وان يدرك انه منفصل عن الله فيحزن ويغتمّ لهذا الأمر ومن ثم يرغب بالغفران والمصالحة رافضاً الشر ومختاراً العودة لله ومشتاقاً بالنهاية المناولة من اجل « شفاء النفس والجسد » .

وتبدأ هذه التوبة ليس بان ينشغل المرء بذاته ، بل بالتأمل بقداسة موهبة المسيح وبالحقائق الالهية التي دعينا اليها . اننا بقدر ما نرى « الخدر مزيناً » ، بقدر ما ندرك اننا محرومون من الوشاح الضروري للدخول اليه . ولأن المسيح قد أتى الينا يمكننا ان نتوب بالحقيقة اي ان نرى انفسنا غير مستحقين لمحبته وقداسته وهكذا نتوق للعودة اليه . بدون هذه التوبة الحقيقية ، هذا «التغيير» الداخلي والجذري « للفكر » ، تصبح المناولة لنا « دينونة » لا « شفاء ».والثمار الحقيقية للتوبة تجعلنا ندرك عدم استحقاقنا الكامل وتدفعنا الى المسيح الشافي والفادي والمخلص الوحيد . واذ تكشف لنا عدم استحقاقنا تملأنا التوبة بتلك الرغبة ، بذلك التواضع ،بتلك الطاعة ،التي تجعلنا وحدها «مستحقين» في عيني الله . اقرأ الصلاة قبل المناولة فتجد انها تحتوي هذا الصراخ الواحد :

« ايها الرب السيد أنا لست مستحقاً لان تدخل
تحت سقف بيت نفسي . ولكن اذا كنت
تشاء انت ، بما انك محب للبشر ، ان تسكن
في أتقدم واثقاً . واذ كنت تأمرني فافتح
الابواب التي انت وحدك ابدعتها فتدخل من
تلقاء محبتك كما هو من شيمتك. وتنير فكري
المظلم وأنا اؤمن انك ستصنع ذلك ... » .

الافشين الرابع ليوحنا الذهبي الفم
من صلاة المطالبسي

وأخيراً يأتي الصعيد الثالث والأسمى للتهيئة الذي نبلغه عندما نرغب ان نتناول لأننا نحب المسيح ونشتاق ان نتحد به ، الذي « اشتاق اشتياقاً » ان يتحد بنا . وفوق حاجتنا ورغبتنا بالغفران والمصالحة والشفاء ، يجب ان يكون عندنا هذا : محبتنا للمسيح الذي نحبه « لأنه أحبنا أولاً » (١ يوحنا ٤ : ١٩). وبالنهاية ان هذا الحب ، ولا شيء غيره ، هو الذي يمكننا ان نعبر الهوة التي تفصل الخليقة عن الخالق ، الخاطيء عن القدوس وهذا العالم عن ملكوت الله.

ان هذا الحب هو وحده الذي يتخطى ، وبالتالي يستخف ويستهزىء باستطراداتنا البشرية حول « الاستحقاق » و « عدم الاستحقاق » ويمحو مخاوفنا وموانعنا ويجعلنا نستسلم للحب الالهي « لا خوف في المحبة بل المحبة الكاملة تطرح الخوف الى خارج لأن الخوف له عذاب وأما من خاف فلم يكتمل في المحبة ... » (١ يوحنا ٤ : ١٨) . ان هذا الحب هو الذي أوحى صلاة القديس سمعان اللاهوتي الحديث الجميلة :

« ... لأن من يشارك في النعم الالهية والمؤلهة
لا يكون وحده حاشا. بل معك ايها المسيح...
ولا أكون وحدي منفصلاً عنك يا مانح الحياة
ويا نسمتي وحياتي وبهجتي وخلاص العالم .

الافشين السابع من صلاة المطالبسي

هذه هي غاية كل تهيئة وكل توبة ، كل جهد وكل صلاة : كي نحب الرب يسوع « بجسارة وبلا دينونة » ونشارك في السر الذي يعطينا محبة المسيح .

ـــ ٨ الاعتراف والمناولة

ما هو دور سر الاعتراف في هذه التهيئة ؟ ان طرح هذا السؤال واجب لأنه في كثير من الكنائس الارثوذكسية تنمو عقيدة اصبحت مقبولة اليوم عموماً وهي تؤكد ان المناولة للعلمانيين مستحيلة بدون الاعتراف والحل . ولو رغب

المرء ان يتناول مراراً ، عليه في كل مرة ان يعترف او على الاقل ان يذهب الى الكاهن ليحله .

لقد حان الوقت ان نقول علناً انه مهما كانت الاسباب التي دعت الى هذه العقيدة وممارستها فهي لا اساس لها في التقليد وتقود الى انحرافات خطيرة في العقيدة الارثوذكسية للكنيسة والافخارستيا والتوبة نفسها .

كي يتأكد المرء من هذا، عليه ان يتذكر فهم الكنيسة الاساسي لسر التوبة. ان هذا السر ، حسب تعليم الكنيسة الجوهري ، هو سر المصالحة مع الكنيسة والعودة اليها والى حياتها ولا سيما لاولئك المحرومين اي المفروزين من الاجتماع الافخارستي للكنيسة .

في البدء كانت الكنيسة تنتظر من اعضائها حياة اخلاقية عالية وانضباطاً كنسياً دقيقاً دون ان تسمح بأكثر من مصالحة واحدة : « بعد تلك الدعوة المقدسة (أي المعمودية) اذا جرب الشيطان أحداً وأخطأ ليس له الا توبة واحدة». هذا ما نقرأه في كتاب الراعي لهرماس الذي يعود الى القرن الثاني . « واذا اخطأ المرء واعترف مراراً فان توبته لا قيمة لها » ـ ولكن اخيراً بعد التنصير الجماعي للامبراطورية إقتداءً باهتداء الامبراطور قسطنطين ، تراخى نظام التوبة الى حد ما ، ولكن دون ان يتغير مفهوم السر : كانت التوبة فقط من اجل المحرومين أي المفروزين من الكنيسة لاعمال وخطايا يحددها بوضوح التقليد القانوني للكنيسة . وبقي هذا المفهوم للتوبة في الكنيسة حتى اليوم وهذا ما نراه واضحاً في صلاة الحل المستعملة في الكنيسة الارثوذكسية . « اتحده ـ او اتحدها ـ بكنيستك المقدسة بيسوع المسيح ربنا ... » . اما الصلاة الثانية فهي مجهولة في كنائس ارثوذكسية كثيرة « وانا الكاهن غير المستحق بقوة السلطان المعطى لي ، اسامحك وأحلك ... » . ان اصله غربي وقد أدخل الى كتبنا الطقسية في زمن الليتنة الحادة للاهوت الارثوذكسي) .

هل هذا يعني ان غير المحروم ، أي المؤمن العادي تعتبره الكنيسة بلاخطيئة؟

بالطبع لا . ان تعليم الكنيسة يقول بوضوح ان لا أحد بلا خطيئة الا الله وليس « من انسان يحيا ولا يخطأ » . كما ان تعليم الكنيسة ايضاً كان يعتبر دائماً ان هناك خطايا تحرم المرء من الاشتراك بالمناولة وأخرى لا تحرمه . لقد كتب القديس نيقولا كابازيلاس :

« هناك حسب تعليم القديس يوحنا خطايا
ليست مميتة. ولهذ السبب يمنع هؤلاء المؤمنين،
الذين لم يرتكبوا خطايا تفصلهم عن المسيح
وتقودهم الى الموت من ان يشتركوا بالاسرار
الالهية اشتراكاً للتقديس، ليس فقط خارجياً،
بل حقيقة لأنهم باقون اعضاء حية متحدة
بالرأس ... » .

هذا لا يعني ان هذه الخطايا ـ وضعنا الخاطىء العام ، ضعف حياتنا كلها وعدم استحقاقنا ـ لا تحتاج الى التوبة والاعتراف . ان التهيئة للمناولة ما هي، كما رأينا ، إلا توبة وصراخ للغفران والمصالحة . ما لا نحتاجه هو الاعتراف والحل الأسراريين والحل ينطبق على المحرومين فقط . ان خطايانا « غير المميتة » وخطايانا العامة يعترف بها كل مرة يجتمع فيها المؤمنون لاقامة سر الشكر ، وما حياة الكنيسة كلها الا توبة مستمرة . فاثناء الخدمة الالهية وفي **صلاة التريصاجيون** نعترف بخطايانا ونطلب الغفران:

« ... واغفر لنا كل اثم طوعي او كرهي
وقدس نفوسنا وأجسادنا. وهب لنا ان نعبدك
بالبر كل ايام حياتنا ... » .

واذ نقترب من الكأس المقدسة نطلب الغفران من اجل الخطايا « الطوعية والكرهية ، التي بالقول والتي بالفعل والتي بمعرفة والتي بغير معرفة » . ونحن نؤمن انه بقدر ما نتوب يغفر لنا باشتراكنا بسر الغفران والشفاء .

يجب ان يكون واضحاً ان العقيدة التي تقول ان سر التوبة شرط **ضروري**

لقبول العلمانيين للمناولة ليست انحرافاً عن التقليد الاساسي العام للكنيسة وحسب بل تشويه ايضاً للتعليم الارثوذكسي حول الكنيسة والافخارستيا والتوبة نفسها. انهاتشوّه عقيدة الكنيسة لأنها تقسم عملياً اعضاءها الى فئتين بالنسبة لواحدة منها (العلمانيين) ، اعادة الولادة بالمعمودية ، التقديس بالميرون ، والصيرورة « مواطنين مع القديسين في بيت الرب » ، كلها لا تعتبر كمانحة للعضوية الكاملة اي الاشتراك في السر الذي تحقق فيه الكنيسة ذاتها كجسد المسيح وهيكل الروح القدس. انها تشوه عقيدة الافخارستيا لأنها بوضعها لشروط غير شرط العضوية بالكنيسة للمناولة تجعل مستحيلاً عملياً أن نرى ونختبر الافخارستيا كسر الكنيسة نفسه وكالعمل الذي يجعلنا ، حسب قداس باسيليوس « نحن الذين اشتركنا بالخبز الواحد والكأس الواحدة نتحد مع بعضنا البعض في شركة الروح القدس ». وهي تشوه بالنهاية سر التوبة نفسه لأن الاعتراف اذ يصبح شكلياً وبالتالي الشرط الوحيد للمناولة ، يستبدل التهيئة الحقيقية للمناولة التي تقوم كما رأينا على التوبة الحقيقية الداخلية. والتشديد في السر يتحول من التوبة الى الحل ليفهم بطريقة سحرية تقريباً. وما يطلبه المرء اليوم هو هذا الحل الشكلي ونصف السحري، والقانوني وليس المصالحة مع الكنيسة التي فصلته خطاياه عنها. يطلبه ليس لأن خطاياه تزعجه (والخطيئة عنده طبيعية ولا مفر منها) بل « ليؤهله » للاقتراب من المناولة بضمير مرتاح. وهكذا يصبح سر التوبة الحاسم والرهيب في الكنيسة الاولى ، مجرد « شرط » المناولة ويفقد معناه الحقيقي ومركزه في الكنيسة .

كيف يمكن لهذه العقيدة ان تظهر في الكنيسة وتصبح قاعدة يدافع عنها كثيرون وكأنها جوهر الارثوذكسية ؟ عوامل ثلاثة تشترك في مسؤولية هذا الأمر. لقد ذكرنا سابقاً واحداً منها : هو ذلك الموقف من متطلبات الكنيسة الإسمي والفاتر والمقتصر على الحد الادنى ، ذلك الاهمال للاسرار ادانه الآباء

وهو الذي قاد شيئاً فشيئاً الى تقليل المناولة فوصلت بالنهاية الى « فرض مرة » واحدة في السنة . « وهكذا فمن الواضح ان المسيحي الذي يتناول احياناً ويكتفي في بقية ايامه « بحرمانه العملي» يجب ان يصالح مع الكنيسة ولا يمكن قبوله للمناولة الا بعد أن يمر بسر التوبة .

والعامل الثاني يختلف كلياً عن الاول وقد حصل بتأثير الاعتراف الرهباني ضمن الكنيسة وهو الارشاد الروحي الذي يعطيه راهب خبير الى راهب أقل خبرة والذي يقوم على ان يكشف هذا الأخير افكاره كلها للأول ـ . وهذا « الشيخ » الذي يُمهد اليه بالاعتراف والارشاد الروحي لم يكن بالضرورة كاهناً (والرهبنة في شكلها الأولي لم تكن بالواقع متجانسة مع الكهنوت) كما ان ذاك الاعتراف لم يكن مرتبطاً بسر التوبة . لقد كان جزءاً مكملاً من الحياة الرهبانية والنظام الرهباني القائم على الطاعة الكاملة وعلى رفض الراهب الكلي لارادته الخاصة . وهكذا حسب قواعد الرهبنة البيزنطية للقرنين الثاني والثالث عشر منع الراهب من ان يتناول او ان يمتنع عن المناولة بقراره الخاص بدون اذن الرئيس او أبيه الروحي . ولأنه بموجب واحدة من هذه القواعد « ان يحرم الانسان نفسه من المناولة يعني ان يتبع ارادته الذاتية » وفي الأديرة النسائية اعطيت السلطة نفسها للرئيسة . وهكذا نجد هنا اعترافاً غير سرّي شبيهاً بما يسمى اليوم « ارشاداً » أو « توجيهاً روحياً » كان له ، تاريخياً تأثير كبير وحاسم على الاعتراف السرّي (الاسراري) . وفي ايام الانحطاط الروحي (يستطيع المرء ان يرى ملامحه مثلاً في قوانين مجمع ترلّو الذي عقد في القسطنطينية سنة ٦٩١ م) وعندما فقد كهنة الرعايا سلطتهم الاخلاقية والروحية ، أصبحت الأديرة عملياً مراكز الارشاد الروحي الوحيدة كما أصبح الرهبان المرشدين الروحيين الوحيدين للشعب الارثوذكسي . وهكذا شيئاً فشيئاً اتحد نموذجا الاعتراف : السري والروحي في واحد . الاعتراف « الروحي »

اصبح تهيئة للمناولة كما جمع الاعتراف السري المشاكل الروحية التي فُصلت عنه سابقاً.

ان هذا التطور المبرر روحياً وتاريخياً ، بالرغم من ايجابيته في الظروف التي حصل فيها ، ساهم بالالتباس الحاصل اليوم في اوضاعنا الحاضرة وأضرّ اكثر مما أفاد . ليس من شك اننا بحاجة ماسة وجوهرية في الكنيسة للارشاد الرعائي والروحي . ولكن السؤال الأساسي هو : هل الاعتراف في خمس دقائق لصفّ من المنتظرين دورهم « ليتمموا واجباتهم » مرة في السنة ، في وضع من المستحيل ان نصل الى اعماق القضية وان نعترف اعترافاً لائقاً ، يسدُّ هذه الحاجة ؟ ثم يأتي السؤال التالي : هل عند جميع الكهنة وخاصة الشباب منهم الخبرة الكافية وهل هم مؤهلون لفهم المشاكل المطروحة عليهم وحلها ؟ كم من الأخطاء المأساوية وكم من الارشادات الروحية المضرة والفهم السيء كان بالامكان ان نتحاشاها لو حافظنا على التقليد الاساسي للكنيسة وعلى الاعتراف السري عندما يعترف التائب بخطاياه ، مخصصين جواً آخر للنصح الرعائي والارشاد الروحي للذين نحن بأشد الحاجة اليها . وهذا ما يساعد الكاهن على ان يتحقق في بعض الحالات من نواقصه ويفتش هو نفسه عن مساعدة وارشاد من أسقفه او من كاهن آخر او من خبرة الكنيسة الروحية .

أما العامل الثالث والحاسم فهو الفهم الغربي للتوبة السكولاستيكي والقانوني. لقد كُتبت اشياء كثيرة عن «الاسر الغربي» للاهوت الارثوذكسي ولكن قلائل هم الذين يدركون بُعدَ هذا التشويه وعمقه الذي سببته هذه التأثيرات الغربية في حياة الكنيسة وبالدرجة الاولى في فهم الأسرار . ان هذا التأثير الغربي هو الذي قاد الى هذا التحول (المذكور اعلاه) من التوبة والمصالحة مع الكنيسة كجوهر سرّ التوبة الى الحل المحصور تقريباً في فهم قانوني . ففي الفهم الأرثوذكسي الأصيل ينبع الحلّ من ان الكاهن هو شاهد على التوبة وعلى حقيقتها وهو مؤهل بالتالي ليعلن و « يختم » على الصفح الالهي وعلى « مصالحة التائب بيسوع المسيح مع الكنيسة المقدسة » . اما في الاطار الغربي القانوني ، فالحل يصبح « قوة بحد ذاتها » تطورت هنا وهناك الى عادة غريبة بالحقيقة، وهي

طلب «الحل» بدون اعتراف . ان التمييز الاساسي الذي ذكره كابازيلاس سابقاً ـ بين الخطايا التي تقود الى الحرم وبين التي تفصل المرء من الكنيسة قد تعقلن في الغرب كتفريق بين « الخطايا المميتة » ـ التي تحرم الانسان من « حالة النعمة » وتتطلب بالتالي الحل الاسراري ، وبين « الخطايا العرضية » التي لا تؤثر في حالة « النعمة » والتي يكفيها عمل ندامة . أما في الشرق الأرثوذكسي وخاصة في روسيا (تحت تأثير لاهوت موفيلا المليثين وأتباعه) فقد نتج عن هذه العقيدة الربط الاجباري بين الاعتراف وكل مناولة . اومن المؤسف بالحقيقة ان « التسرب » الفاضح من الغرب ، يؤمن به كثيرون من الارثوذكس و كأنه القاعدة الأساسية للأرثوذكسية بينا مجرد محاولة لاعادة تقييم هذه العادة في ضوء التقليد الارثوذكسي الأصيل تُدان غالباً و كأنها انحراف غربي .

٦ ـ الاكتشاف الشامل

ما نحتاجه اذاً هو بالدرجة الأولى ان يكتشف المؤمنون في الكنيسة اكتشافاً حقيقياً المعنى الأصيل للافخارستيا كسر الكنيسة ، كالعمل الجوهري الذي به تصبح ما هي : جسد المسيح ، هيكل الروح القدس ، موهبة الحياة الجديدة ، اعلان ملكوت الله ، معرفة الله وشركة معه . تصبح الكنيسة كل هذا « بسر الجماعة » ـ كثيرون يأتون معاً ليؤلفوا الكنيسة بتقديمهم « بفم واحد وقلب واحد » الافخارستيا ، خاتمين هذه الوحدة ـ في المسيح مع الله وفي المسيح مع بعضهم بعضا ـ باشتراكهم بالقدسات .

وما نحتاجه ايضاً ان نكتشف المناولة من جديد كالغذاء الجوهري الذي يوّحدنا مع المسيح ويشركنا بحياته وموته وقيامته ، كالطريقة التي نحقق بها ذواتنا كاعضاء في الكنيسة والتي ننمي بها حياتنا الروحية .

وما نحتاجه أخيراً هو ان نكتشف ايضاً المعنى الحقيقي للتهيئة كالمركز الرئيسي لحياتنا الروحية ، كالجهد الروحي الذي يكشف لنا دائماً « عدم

استحقاقنا » ويجعلنا نرغب بالتالي سر الشفاء والمصالحة ، والذي يكشف لنا محبة المسيح بعمقها الذي لا يدرك ، يجعلنا نحبّه ونشتاق ان نتحد معه .

ونحن اذ نكتشف من جديد كل هذا ، نكتشف ايضاً ان حياة الكنيسة كلها كانت بالواقع دائماً تلك التهيئة : ان كل قواعدها - الليتورجية والروحية النظامية والانسحاقية - لا غاية لها الا ان تجعل حياتنا كلها تهيئة دائمة ليس فقط للمناولة بل بالنهاية لِما تهيئنا المناولة اليه - فرح « النهار الذي لا يغرب لملكوت الله الأبدي » وكماله .

وهكذا نكتشف الحاجة الحقيقة لسر التوبة ، للاعتراف السري . ونجد فيه ليس « حلاً شكلياً » او « شرطاً » شكلياً للمناولة ، بل تجديداً روحياً عميقاً ومصالحة حقيقية مع الله ، عودة الى كنيسته التي نحرم منها غالباً بسبب وجودنا المُعَلَن من اليائس . كما نكتشف المعنى الروحي **لموسم الندامة** في الكنيسة ، صوم الميلاد والصوم الكبير الخ ... التي هي الوقت المناسب والموسم اللائق للتوبة الاسرارية . نكتشف في انفسنا الحاجة للارشاد الروحي الحقيقي وفوق كل شيء نكتشف سر جسد المسيح ودمه - الذي نتقدم اليه بخوف الله وايمان ومحبة - كالمركز الدائم لحياتنا كمسيحيين والنبع الأصيل لها .

كل هذا لن يحصل بين عشية وضحاها . انه يتطلب كثيراً من الوقت والجهد والصبر . وبمجرد طرح هذه الاسئلة كلها - وبعمق يتحوّل هذا الجوع والعطش لاشتراك أكمل في حياة الكنسية السرية والروحية - وظهورها في الكنيسة وبين اعضائها ، يؤكد لنا انه بالرغم من الانحطاط والتفكك الروحي في أيامنا، ان الكنيسة لا تشيخ ، بل « يتجدد كالنسر شبابها »فعلى اولئك الذين إئتمنهم الله « ان يقطعوا باستقامة كلمة حقه » - أي على الأساقفة كحراس الحقيقة - ان يدركوا ان هذا الجوع الروحي يجب ان يُشبع بالقواعد الصحيحة وبالمتطلبات الصحيحة لتقليد الكنيسة المقدس .

ملاحظات ومراجع

١ ــ الصوم الكبير

الصوم الكبير كما نعرفه اليوم هو حصيلة تطور تاريخي طويـل ومعقد جداً ولم تدرس بعد جميع جوانبه دراسة جدية . فثمة اسئلة كثيرة تبقى بدون اجابة وعمل كبير ننتظر ان يقوم ليس فقط في مجال التفاصيل الثانوية بل ايضاً في القضايا الأساسية . وفي ما يلي ملخص للوقائع الرئيسية الأكيدة :

من الثابت ان الكنيسة عرفت فقط في منتصف القرن الثاني صوماً قصيراً جداً قبل تعييد الفصح السنوي، وحتى هذا الصوم حفظ بطريقـة مختلفة في أمكنة متعددة . لقد كتب القـديس ايرناوس حـول مشكلة تعييد الفصح فقال : « المشكلة ليست فقط حول اليوم بالذات بل ايضاً حـــول طبيعة الصـــوم . فالبعض يفكرون انهم يجب ان يصوموا يوماً واحداً ، وآخرون يومين ، وغيرهم أكثر . البعض يعتبرون يومهم اربعين ساعة ، نهاراً وليلاً . وهذه الاختلافات لم تبدأ في ايامنا بل ابكر بكثير، في ايام أسلافنــا .» (ذكرها افسابيوس في تاريخه ٥ : ٢٤ ــ ١٢ . انظر ايضاً هيبوليتوس الرومـــاني في **تقليده الرسولي** ٢ : ٢٠ من ٢ ــ ٩ و ٢١ : ١ ــ ٥ وترتليـــانوس ، حول المعمودية ١٩) . ثم نجد بعد قرن اثباتات تشير الى ان هذا الصوم السابق للفصح ، قد امتد في بعض المناطق على الأقل الى اسبوع كامل (أي ما نعنيه اليوم بالاسبوع العظـــيم). وهكذا نقرأ في **تعليم الرسل** « ... تصومون في أيام الفصح من اليـــوم الثاني

للاسبوع (اي الاثنين) وتقيمون أوَدَكُمْ بالخبز والملح والمــاء فقط للساعة التاسعة حتى اليوم الخامس (أي الخميس) ... أمــا في يوميْ الجمعة والسبت فصوم كامل لا تذوقون فيه طعاماً » . ثم تأتي ، ويا للأسف ، فجوة لفترة ثلاثة ارباع القرن قبل وصول أسبق المعلومــات حول صيام الاربعين يومــاً. وقــد جــاءت هــذه المعلومــات من القانون الخــامس لمجمع نيقية الذي نحسّ منه ان الصــوم ليس تجديداً بل قضية عــادية . إذن كيف وأين ومتى تطور هذا الصوم السابق للفصح ، الذي دام من يومين الى ستة ايام ، ليصبح اربعين يوماً . ان دارسي الطقوس يعطون على هــذا السؤال جوابين مختلفين: فالبنسبة للبعض جاء صومنا الحاضر من دمــج الصوم السابق للفصح المذكور اعلاه بصوم آخر كان في البدء مستقلاً عن الموســم الفصحي يعيد ذكرى صوم المسيح في الصحراء بعد معموديته . ولم يرتبط هــذا الصوم بالفصح بل بعيد الظهور ويبدأ في السابع من كانون الثاني . وقد حصل هذا الدمج بين الصومين تحت تأثير رتبة الموعوظية وتهيئة الموعوظين للمعمودية قبل الفصــح. (انظر ...) . بينما يرى الآخرون ان الأربعين يوماً هي تطور تدريجي للصوم السابق للفصح الذي ابتدأ مع رتبة الموعوظية. (انظر ...) . أما أنا شخصياً فلا أجد النظرية الأولى مقنعة وحاسمة ، على الأقل في تطبيقها العالمي . ولكنني أقرّ ان الاثباتات النهائية ما زالت مفقودة .

ومهما يكن من أمر فاننا نجد في القرنين الرابع والخامس ان صوم الاربعين يوماً التي تسبق الفصح أمراً عالمياً واضحاً ومقبولاً . ولكن حتى من القرن الخامس يشير المؤرخون الكنسيون ، سقراط وسورومن ، الى عادات متنوعة جداً . يكتب سقراط فيقول : « يمارس الصوم قبل الفصح بطرق متنوعــة في أمكنة مختلفة . ففي رومــا يصومون ثلاثة اسابيع بدون انقطاع ، ما عدا السبوت والآحاد ، بينما في الاريكوم باليونان والاسكندرية يصومون ستة اسابيع قبل الفصح ، ويسمّونه اربعيني . أما آخرون فيصومون قبل سبعة اسابيــع من العيد ». (سقراط تاريخ الكنيسة ٥ : ٢٢) . ومعاصره الشاب المــؤرخ

سوزومن يكرر المعلومات نفسها قائـــلاً : يبدأ البعض الصوم الأربعيني قبل ستة أسابيع من الفصح وخاصة اليريكوم ، والمسيحيون العائشون في الغرب ، ليبيــا ، مصر وفلسطين ، بينما سكان القسطنطينية والجوار يصومون قبل سبعة أسابيع ... واثناء هــذه الاسابيع الستة أو اكثر يصوم البعض لثلاثة أسابيع متقطعة وآخرون بدون انقطاع وغيرهم ، يصومون كالمونتانيين اسبوعين فقط » . (تاريخ سوزومن ٧ : ١٩) . من الواضح ان هذه الاختلافات جاءت من الطرق المختلفة التي فهم من خلالها مبدأ «الاربعين يوماً» . اننا نتساءل هــل تشمل هذه، الاسبوع العظيم الذي نعرف انه موجود قبل ان تظهر فكرة صيام « الاربعين يومـــاً » السابقة للفصح وبالاستقــلال عنه . ومن جهة أخرى يجمع التقليد على ان ايام السبوت والآحــاد ليست ايامــاً صياميــة . ففي اورشلــيم وفق ما جــاء في مذكرات Peregrinatio ethreae الشهيرة ، ضمّ الصوم ، الاسبوع العظيم بدون السبوت والآحاد ، وهذا يعـني ان الصوم دام ثمانية اسابيع وخمسة ايام في الاسبوع ، وهــذا يعطي بالضبط اربعين يوماً صيامية . هنا فهمت الاربعين كأربعين يوم صيــام . العادة نفسها يشير الى وجودها كل من ابيفانيوس في قبرص ويوحنا الذهــبي الفم سنة ٣٨٧ في انطاكية . اما في القسطنطينيــة وفي مصر وفي الغرب ، فقد عنت الاربعين يوماً بالدرجة الاولى موسم تهيئة ، يصوم المرء اثناءهـــا خمسة ايام من الاسبوع وقد شمل هذا الموسم ، كموسم ليتورجي ، يومي الافخارستـــيا الاسبوعية . ويتحدث القديس اثناسيوس الاسكندري في واحد من رسائـله العيدية ، عن زمن الصوم وعن صوم الاسبوع العظيم (انظر خاصة رسالته العيدية لسنة ٣٣٠) . أما في القسطنطينية فقد شملت الاربعين يوماً السبوت والآحاد مستثنية الاسبوع العظيم وسبت العازر وأحد الشعانين . وأخيراً فقد شمل الصوم في الغرب وفي مصر الاسبوع العظـــيم والايام الافخارستية ، الأمر الذي أدّى الى صوم اقصر .

لا شك ان هذه الاختلافات قد أثارت مجادلات عنيفة . مثلاً أحد «مرفع الجبن» الذي يسبق ، حسب التيبيكون البيزنطي ، الاربعين يوماً والذي يشكل

نوعاً من الاسبوع الثامن مع صوم محدد وبعض الملامح الطقسية الصيامية ، يبدو انه نتيجة مساومة الرهبان الفلسطينيين المتعلقين جداً بأسابيع الصوم الثمانية والمعارضين للممارسة البيزنطية . ولم يتوحد الموسم الصيامي في مصر وسوريا قبل ان يحتل العرب هذين القطرين وقبل ان يضيع استقلالها عن القسطنطينية . فالقسطنطينية هي التي وحدته والتي اليها حسب كلمات غريغوري ديكس ، يجب ان نتطلع لنرى الاصل الحقيقي لـ « روزمانة عالمية » .

ومن خلال هذه « الخلاصة » البيزنطية ، تابع الصوم تطوره لفترة طويلة من حيث تنظيمه في الزمن ومن حيث طقوسه . ففي الزمن اضيف اسبوعان سابقان للصيام لأسبوع مرفع الجبن وهما اسبوع الابن الضال الذي تطور من أحد مرفع اللحم ، والذي ذكره ثيودوروس الستوديتي في القرن التاسع (العظة ٥٠) وأسبوع الفريسي والعشار الذي تطور من الجدال ضد ـ الأرمن . وقد ذكر لأول مرة في القرن الثامن . أما بالنسبة للطقوس الصيامية فقد لعب الاصلاح الذي قام به دير ستوديون في القسطنطينية وخاصة القديس ثيودور ، دوراً حاسماً . في ذلك الوقت كانت معمودية البالغين ورتبة الموعوظية قد اختفت من حياة الكنيسة وقد استبدل الطابع التعليمي للموعوظين بطابع « ندامي » محض . وهذا التشديد الجديد على الندامة هو الذي يتخلل التريوديون ، عمل الستوديون الكبير ، الذي بلغ فيه التطور التاريخي للموسم الصيامي ذروته . وهكذا يمكن للمرء ان يقول انه بنهاية القرن العاشر ، ما عدا بعض التفصيلات الدقيقة ، قد بلغ الصوم الكبير وضعه الحالي .

فاتحـــة

الغاية من الصفحات التي يجمعها لنا هذا الكتيب ان تقودنا لاكتشاف الرب من وراء صلوات اسبوع الآلام الجميلة .

الغاية منها ان لاتبقى الصلوات التي نسمع والاحتفالات التي فيها نشترك في الاسبوع العظيم مجرد الفاظ جامدة لا حياة فيها . بل ان يشع نور الرب من صلواتنا وان نعب من هذا النور ، ان يكون الرب حيـاً بالنسبة لنا نحن المصلين ، فلا نطلبه ميتـاً اسير لفظ مهما جمل .

ثم نعلم ان خدمنا الكنسية وصلواتنا غنية بالتعاليم ، فيهـا شرح لعقائدنا وللكتاب المقدس .

من اجل الفائدة الجليلة التي يحصلها المؤمن اذا ما فهم الصلوات التي يتلو فهماً صحيحاً اراد سيادة راعينا الجليل ان تترجم هذه الشروحات للأب الكسندروس شميان استاذ اللاهوت في معهد القديس فلاديمير اللاهوتي في نيويورك .

وعهد بهـذا العمل الى الاب ابراهيم سرّوج . فأتت الترجمة سلسة العبارة ، مطابقة ، قدر المستطاع ، للنص الانكليزي .

انها في الاساس مناشير وزعت على المؤمنين في الاسبوع العظيم المقدس سنة ١٩٦٨ ، يوماً بعد يوم . ولكن ضمها في كتيب انما كان تعميماً للفائدة .

الكتيب هذا وسيلة . فعسى ان تدربنا الصفحات التالية لنحيي القطع التي نتلو ونرتل في صلواتنا ، ليس في اسبوع الآلام فقط بل في كل تسبيح ترفعه الكنيسة للرب .

شفيق حيدر

شرح صلوات اسبوع الآلام

١ - بداية الصليب : سبت العازار

« بعد اتمامنا الاربعين يوماً... نطلب ان نرى اسبوع الامك المقدس ». مع هذه الكلمات التي نرفعها في غروب الجمعة من اسبوع الشعانين ، ننهي الصوم وندخل في التذكار السنوي لآلام المسيح وموته وقيامته . يبدأ هذا التذكار بسبت العازار. تصف الطقوس العيد المزدوج لقيامة العازر ودخول السيد الى اورشليم كبداية الصليب ، ولذا علينا ان نفهمه في اطار الاسبوع العظيم تؤكد الطروبارية المشتركة لهذه الايام انه « بقيامة العازر من بين الاموات يحقق المسيح القيامة العامة » : انه ليعني لنا الشيء الكثير ان الكنيسة تقودنا بواحد من اعيادها الاثنى العشر الكبيرة الى ظلمة الصليب. النور والفرح لايشعان فقط في نهاية الاسبوع العظيم. بل في بدايته ايضاً . انهما ينيران الظلمة نفسها ويكشفان معناها العميق .

كل الذين يألفون الطقوس الارثوذكسية « اي الصلوات » يعرفون الطابع الخاص والمفارق تقريباً لخدم سبت العازار ، انه احد ، اي خدمة احد في يوم سبت مخصص عادة لتذكار الموتى. والفرح الذي يتخلل هذه الخدم يشدد على الموضوع الرئيسي : انتصار المسيح القريب على الجحيم . الجحيم هو التعبير الكتابي للموت بقوته العالمية ، للظلمة ، للأبادة التي لا مفر منها والتي تبلع كل حياة وتسمم بظلها العالم كله . اما الان فقد بدأ الموت يرتعد مع قيامة العازر التي بها يبتدىء النزال الحاسم بين الحياة والموت والتي تعطينا المفتاح لكل سر الفصح الليتورجي .

سمي سبت العازر في الكنيسة الاولى « اعلان الفصح » : انه يعلن ويستبق بالحقيقة يوم القبر الحي ، اعني يوم القيامة بنوره الساطع وسلامه الدافىء .

لنفهم اولاً ، ان العازار صديق المسيح ، يمثل العالم كله وكل انسان ، وبيت عنيا ، بيت الانسان العازر ، ترمز الى الكون كله كبيت للانسان . ذلك لان كل انسان خلق صديقاً لله ودعي لصداقة الهية : معرفة الله ، الاتحاد به ومشاركة الحياة معه : «به كانت الحياة والحياة كانت نور الناس » (يو ١: ٤) ومع ذلك هذا الصديق الذي احبه الله ، وبمحبة خلقه اي دعاه للحياة ، قد تهدم وانعدم بقوة لم يخلقها الله وهي الموت . الله يجابه ، في عالمه بالذات ، قوة تهدم عمله وتعدم تصميمه وما العالم الا حزن ونواح ، دموع وموت. كيف يكون هذا ممكناً ؟ وكيف حصل ؟ هذه هي الاسئلة التي يلمح لها يوحنا في وصفه البطيء والتفصيلي لمجيء يسوع الى قبر صديقه . ولما وصل « بكى يسوع » (يو ١١ :٣٥) . لماذا يبكي وهو يعرف انه بلحظة سيعيد العازر الى الحياة ؟ ان واضعي الترانيم البيزنطية فشلوا في ادراك المعنى الحقيقي لهذه الدموع . انهم ينسبونها لطبيعة المسيح البشرية بحيث ان قوة القيامة تخص الله فيه . ولكن الكنيسة الارثوذكسية تعلم ان اعمال المسيح كلها « هنسانية » اي الهية وانسانية وكلها صادرة عن الاله الانسان الواحد ، عن ابن الله المتجسد نفسه . ليس الذي يبكي انساناً وحسب ولكنه اله ايضاً ، وليس الذي يدعو العازر من القبر الهاً وحسب بل انسان ايضاً ولذا فدفوعه الهية ايضاً . المسيح يبكي لانه يتأمل انتصار الموت والخراب في العالم الذي خلقه الله. « قد انتن » قالت مرتا ، اخت العازر ، محاولة ان تمنع يسوع من الاقتراب الى الجثة وهذا التحذير الشنيع ينطبق على العالم كله وعلى كل

حياة. الله هو الحياة ومعطي الحياة. لقد دعا الانسان الى حقيقة الحياة الالهيــة وها هو « قد انتن »... وقد خلق العالم ليعكس ويعلن مجد الله وها هو « قد انتن ». عند قــبر العازر يجابــه الله الموت ، نقيض الحياة ، انه يلاقي عدوه الذي اخــذ منه عالمه واصبح رئيسه . ونحن الذين نتبع المسيح مقتربا من القبر نأتي معه الى « ساعته »، ساعة الصليب، التي اعلنها مراراً كقمة كل اعماله وكالها . ان اقصر اية في الانجيل . « ودمع يسوع » تعلن الصليب وضرورته ومعناه الكوني ... نحن نفهم الآن ان المسيح ببكائه اي بتعبيره عن محبتــه لأ لعازار صديقه يملك سلطة دعوته الى الحياة ثانية . ان قوة القيامة ليست قــوة الهية بحد ذاتهاولكنها قوة المحبة او بالاحرى المحبة هي الحياة ، والمحبة تخلق الحيــاة . انها المحبة التي تبكي عند القبر . انها المحبة التي تعيد الحياة . هــذا هو معنى دموع المسيح الالهية . فيها تعود المحبة الى العمل خالقة من جديد ، فادية ومُحيية حياة الانسان المظلمة : « العازر هــلم خارجاً »... لهذا السبب سبت العازر هو بداية الصليب كأسمى تضحية للمحبة وبداية القيامة كقمة انتصار المحبة .

« المسيح الذي هو الحق وفرح الكل . والنور والحيــاة . وقيامة العــالم ، ظهر بصلاحة للذين على الارض . وصــار رسما للقيامة فاتحاً للكل غفراناً الهياً .

قنداق سبت العازر

٢ ـ اوصنّا • أحد الشعانين

ان سبت العازر هو من الناحية الطقسية سابق ـ **عيد الشعانين** اي دخول السيد الى اورشليم. للعيدين موضوع مشترك : **نصر وظفر.** السبت يكشف العدو الذي هو الموت . والشعانين تعلن معنى الظفر كنصر ملكوت الله ، كاعتراف العالم بملكه الوحيد يسوع المسيح. ان دخول المسيح الجليل الى المدينة المقدسة كان النصر الوحيد المنظور في حياته . حتى ذاك اليوم كان يرفض بثبات كل محاولة لتمجيده. ولكن قبل ستة ايام من الفصح لم يقبل ان يُمجّد وحسب ولكنه نفسه حرض على التمجيد ودبّر له. لقد أوضح المسيح بعمله ما أعلنه النبي زكريا « هوذا ملكك يأتيك صديقاً مخلصاً وديعاً راكباً على حمار وجحش ابن أتان (زكريا٩:٩) انه اراد ان يُعترف ويُنادى به مسيا وملكاً وفادياً لاسرائيل . والانجيلي يشدد ايضاً على كل هذه الملامح المسيانية : السعف ، الاوصنا ، والهتافات للمسيح كابن داود وملك اسرائيل . تاريخ اسرائيل يأتي الآن الى تمامه وهذا هو معنى الحدث. لان القصد من ذاك التاريخ كان ان يعلن ويهيء ملكوت الله ومجيء المسيا . والآن قد تم لان الملك يدخل مدينته المقدسة وفيه تتم النبوءات والانتظارات كلها . **انه يدشن مملكته .**

ان خدم أحد الشعانين تقيم تذكار هذا الحدث . عندما نحمل سعف النخل بأيدينا نتماثل بشعب اورشليم ونحيّي معهم الملك الوديع مرنمين اوصنا له . ولكن ما معنى هذا **اليوم لنا ؟**

يعني اولا اعترافنا بالمسيح كملكنا وربنا . نحن غالباً ما ننسى ان مملكة الله قد بدأت واننا في يوم معموديتنا قد اصبحنا مواطنين فيها

ووعدنا ان نضع الـولاء لها فوق اي ولاء آخر . علينا ان نتذكر دائماً انه لبضع ساعات كان المسيح بالواقع ملكاً على الارض وفي عالمنا هـذا وفي مدينة واحدة . ولكن كما ادركنا في العازر صورة كل انسان . علينا ايضاً ان نرى في هذا المدينة الواحدة المركز السري للعالم وبالواقع للخليقة كلها . لان هذا هو المعنى الكتابي لاورشليم المركز الرئيس لتاريخ الخلاص والفداء كله ، المدينة المقدسة لمجيء الرب . اذاً المملكة التي ابتدأت في اورشليم هي مملكة عالمية تضم في ابعادها كل الناس وكل الخليقة... لبضع ساعات،ومع ذلك كانت الوقت الحاسم، ساعة **المسيح** الجوهرية ، ساعة انجاز الله لمواعيده وكل تدبيره . انها نهايـة كل عملية التحضير المعلنة في الكتاب ، نهايـــة كل ما صنع الله للانسان . هكذا تلك الساعة القصيرة لانتصار المسيح الارضي تأخذ معنى ابدياً . انها تدخل حقيقة الملكوت في زمننا ، في كل ساعاتنا ، فتعطي لزمننا معناه وتوصله الى غايته القصوى . لقد اعلن الملكوت في هذا العالم من تلك الساعة وحضوره يدين ويحول التاريخ البشري كله. وفي اكثر احتفالاتنا الطقسية مهابة ، عندما نستلم من الكاهن غصن زيتون ، نجدد القسم لملكنا ونقر بمملكته انها جوهر **حياتنا** وغايتها القصوى . نقر ان كل شيء في حياتنـا وفي العالم **يخص** المسيح ولا شيء يمكن ان يُقطع من مالكه الحقيقي الوحيد . نقر انه ليس من طريق في الحياة لا يملك فيه المسيح ليخلص ويفدي . ونعلن مسؤولية الكنيسة الكلية والعالمية عن تاريخ الانسانية وندعم **رسالتها الكونية** .

ولكننا نعرف ان الملك الذي هتف له اليهود والذي نهتف لـــه اليوم هو في طريقه الى الجلجلة ، الى الصليب والى القبر ، اننا نعرف ان هذا النصر القصير ما هو الا مقدمة لذبيحته. الاغصان التي في ايدينا اذاً تشير الى ارادتنا واستعدادنا ان نلحق به على طريق التضحية ، تشير الى قبولنا التضيحة ونكران الذات كالطريق الاساسي الى ملكوته .

واخيراً هذه الاغصان وهذا الاحتفال يعلنون ايماننا بنصر المسيح النهائي ، ان ملكوته ما زال مستتراً والعالم يجهله . العالم يعيش وكأن الحدث الحاسم لم يحدث وكأن الله لم يمت على الصليب وكأن الانسان فيه لم يقم من بين الاموات.ولكننا نحن المسيحيين نؤمن بمجيء الملكوت الذي فيه سيكون الله الكل في الكل والمسيح الملك الاوحد .

اننا نتذكر في احتفالاتنا الطقسية حوادث الماضي . ولكن المعنى العميق للخدم وقوتها انها تحول التذكر الى حقيقة . هذه الحقيقة ، في احد الشعانين ، هي انخراطنا والتزامنا في ملكوت الله . المسيح لا يدخل فيما بعد مطلقاً الى اورشليم . انه دخلها مرة واحدة وهو لا يحتاج اي «رموز» لانه لم يمت على الصليب قط لنجعل حياته رمزاً» . انه يريد منا قبولا حقيقياً للملكوت الذي جلبه لنا... واذا كنا غير مستعدين لنجدد القسم الجليل في احد الشعانين من كل سنة ، اذا كنا غير مريدين ان نجعل من ملكوت الله مقياساً لحياتنا كلها ، باطل هو تعييدنا وباطل هو اخذ السعف من الكنيسة الى بيوتنا .

٣ ـ الاثنين ، الثلاثاء ، الاربعاء : النهاية

هذه الايام الثلاثة التي نسميها الكنيسة عظيمة ومقدسة لها ضمن التطور الطقسي في اسبوع الآلام قصد واضح ومحدد . انها تضع احتفالاتها كلها في منظار **النهاية** وتذكرنا **بالمعنى الاخروي للفصح**.غالباً ما نعتبر اسبوع الآلام واحدا من «التقاليد الجميلة» او «العادات» ، «جزءاً» بديهيا من تقويمنا . اننا نأخذه كشيء مسلم به ، ونتمتع به كحدث سنوي لطيف « حفظناه » منذ طفولتنا ، نعجب بجمال

خدمه وابهة طقوسه كما نعجب اخيراً وليس باهمية اقل بالهرج والمرج بخصوص وليمة الفصح... وعندما نعمل كل هذه ، نعود الى حياتنا العادية ولكن هل نفهم انه عندما رفض العالم مخلصه ، عندما طفق يسوع يرتاع ويكتئب... وكانت نفسه حزينة حتى الموت(مرقس١٦ :٣٣-٣٤)وعندما مات على الصليب ان«الحياة العادية » انتهت واصبحت غير ممكنة . لانه كان هناك اناس «عاديون» صرخوا «اصلبه» وبصقوا عليه وسمروه على الصليب، وكرهوه وصلبوه بالضبط لانه ازعج حياتهم العادية. لقد كان العالم بالواقع « عادياً » جداًمفضلاً الظلمة والموت على النور والحياة... بموت المسيح ، العالم « العادي » والحياة « العادية » ادينتا الى الابد . او بالاحرى اظهرا طبيعتها الحقيقية غير العادية . واظهرا عجزهما عن اقتبال النور ، وقوة الشر المخيف الذي فيهما . « الان هي دينونة هذا العالم » (يو ١٢ : ٣١) لقد عنى فصح المسيح نهاية « هذا العالم » ومنذئذ كانت نهايته . هذه النهاية قد تدوم الى مئات القرون ، ولكن هذا لا يغير طبيعة الزمن الذي فيه نعيش ك « الزمن الاخير ».«ان هيئة هذا العالم تزول ». (اكو ٧ : ٣١) .

الفصح يعني العبور. وكان الفصح عند اليهود التذكار السنوي لتاريخهم كله كخلاص ، كعبور من عبودية مصر الى الحرية ، من السبي الى ارض الموعد . لقد كان هذا استباقاً **للعبور** الجوهري الى ملكوت الله . والمسيح كان كمال الفصح. المسيح هو الذي حقق هذا **العبور** الحق : من الموت الى الحياة ، من هذا العالم العتيق الى العالم الجديد الى زمن الملكوت الجديد . وهو الذي أعطانا امكانية العبور . اننا نعيش في « هذا العالم » وباستطاعتنا «الا نكون من هذا العالم» اي ان نتحرر من عبودية

الموت والخطيئة ونشترك « بالعالم الآتي » . ولكن لاجل هذا علينا ان نحقق عبورنا . علينا ان ندين الانسان العتيق فينا ونلبس المسيح في معمودية الموت وان تكون حياتنا الحقيقية المستترة في الله بيسوع في « العالم الآتي »

وهكذا ليس الفصح تذكاراً سنوياً جميلاً وبهياً لحوادث مضت . انه هذا الحدث بعينه ظاهراً ومعطى لنا فعالا دائماً ، مُظهراً دائماً عالمنا وزمننا وحياتنا وكأنها ادركت نهايتها ، معلناً بداية حياة جديدة ... الغاية من هذه الايام الثلاثة الاولى من الاسبوع العظيم ان تتحدانا بمعنى الفصح الجوهري وتهيئنا لفهمه واقتباله .

١ ـ هذا التحدي الاخروي ـ وتعني الجوهري، الحاسم، النهائي- ظاهر في الطروبارية المشتركة لهذه الايام :

هاهو الختن يأتي في نصف الليل فطوبى للعبد الذي يجده مستيقظاً أما الذي يجده متغافلاً فهو غير مستحق فانظري يا نفسي الا تغرقي في النوم ويغلق عليك خارج الملكوت وتسلمي الى الموت. بل كوني منتبهة صارخة قدوس قدوس قدوس انت يا الله . من اجل والدة الاله ارحمنا .

نصف الليل هي اللحظة التي ينتهي فيها اليوم القديم ويبدأ يوم جديد وهكذا هي رمز الزمن الذي فيه نعيش كمسيحيين. لانه من جهة ، الكنيسة مازالت في هذا العالم ، تشاركه ضعفاته ومآسيه . ومع ذلك فكينونتها الحقيقية ، من جهة اخرى ، ليست من هذا العالم لانها عروس المسيح ورسالتها هي ان تعلن وتكشف مجيء الملكوت واليوم الجديد . حياتها هي انتظار وتوقع دائمان وابتهال متوجه الى فجر هذا اليوم الجديد... ولكننا ما زلنا منتمين بأعماقنا الى « هذا العالم » . لقد نظرنا النور ، عرفنا المسيح وسمعنا بفرح الحياة الجديدة فيه وسلامها، ومع

ذلك مازال العالم يستعبدنا. هذا الضعف، هذه الخيانة الدائمة للمسيح، هذا العجز عن إعطاء كامل حبنا لصاحب الحب الحقيقي ، كلها تتجلى رائعة في اكسابو ستلاري هذه الايام الثلاثة :

انني اشاهد خدرك مزيناً يا مخلصي . ولست امتلك لباساً للدخول اليه فأبهج حلة نفسي يا مانح النور وخلصني .

٢ ـ ويتضح الموضوع نفسه اكثر في اناجيل هــذه الايام . اولا نصوص الاناجيل الاربعة (حتى يوحنا ١٣ : ٣١) تقرأ في الساعات (الاولى، الثالثة، السادسة والتاسعة). وتظهر هذه الاعادة ان الصليب هو ذروة حياة المسيح كلهــا وكرازته ، والمفتاح لفهمها الصحيح. كل شيء في الاناجيل يقودنا الى هذه الذروة « ساعة يسوع » وعلينا ان نفهم كل شيء على ضوئها. علاوة على ذلك كل خدمة لها انجيلها الخاص.

الاثنين :

في السحرية : متى ٢١ : ١٨ ـ ٤٣ ـ قصة التينة رمز العــالم الذي خلق ليحمل ثماراً روحياً وهو مخفق في جوابه لله .

في القداس السابق تقديسه : متى ٢٤ : ٣ ـ ٣٥ : حديــث المسيح الاخروي العظيم . علامات المنتهى وبدايته « السماء والارض ستزولان وكلامي لن يزول...»

الثلاثاء :

في السحرية : متى ٢٢ : ١٥ ـ ٢٣ : دينونة الفريسيين أي الديانة العمياء والمرائية لاولئك الذين يظنون انهم قواد الناس ونور العــالم ولكنهم بالحقيقة « يغلقون ملكوت السموات على الناس »

في القداس البروجزماني : متى ٢٤ : ٣٦ ـ ٢٦ : ٢ يتحدث عن النهاية وامثال اليوم الاخير : العشر عذارى ، خمس منهن حكيمات

اخذن زيتاً في مصابيحن وخمس جاهلات لم يقبلن على مائدة العرس ، مثل الوزنات العشر .. فاسهروا اذاً لانكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة التي يأتي فيها ابن الانسان ». ومن ثم الدينونة الاخيرة .

الاربعاء :

في السحرية : يوحنا ١٢ : ١٧ ـ ٥٠ : رفض المسيح ، الصراع المتزايد ، التحذير الجوهري : « الان دينونة هذا العالم ... من رذلني ولم يقبل كلامي فله من يدينه . الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الاخير »

في القداس البروجزماني: متى ٢٦ : ٦ - ١٦ المرأة التي سكبت الطيب الثمين على يسوع صورة عن الحب والنـدم اللذين وحدهما يُتحدنا بالمسيح .

٣ـ تشرح ترانيم هذه الايام الدروس الانجيلية هذه وتوسعها: الاستيشارات والاوديات (مجموعة من ثلاثـة اوديات ترنيم في السحريات) . تحذير واحد وحض واحد يتخللان الترانيم كلها : النهاية والدينونة يقتربان فلنتهيأ لهما : . .

« ان الرب لما كان ماضياً الى الالام الطوعية ، قال للرسـل في الطريق : هانحن صاعدون الى اورشليم ، وسيسلم ابن البشر حسبما كتب عنه . فهلم اذن نحن يا اخوة نصحبه بضمائر نقية ، ونصلب معه ، ونميت لاجله لذات العمر ، لكي نعيش معه ونسمعه قائلاً : لست صاعداً الى اورشليم الارضية لكي أتألم ، بل الى ابي وابيكم والهي والهكم ، وارفعكم معي الى اورشليم العلوية في ملكوت السماوات .

انيوس سحرية الاثنين

يا نفسي ها قد ائتمنك السيد على الوزنة ، فاقبلي الموهبة بخوف ، واقرضي المعطي وآسي المساكين ، واقتني الرب صديقاً لكيما اذا وافى بمجد تقفي عن ميامنه وتسمعي تلك النغمة المغبوطة ، ادخل ايها العبد الى فرح ربك ، فاهلني له يا مخلص انا الضال ، لاجل عظم مراحمك .

٤ ـ قرأنا خلال الصوم كله وفي صلوات الغروب كتابين من العهد القديم : التكوين والامثال . أما في بداية اسبوع الآلام فنستبدلهما بالخروج وأيوب . الخروج هو قصة تحرير اسرائيل من عبودية مصر وقصة فصحهم . وهو يهيئنا لفهم خروج المسيح الى ابيه وتكملته لتاريخ الخلاص بأجمعه . ايوب المتألم هو ايقونة العهد القديم للمسيح. وتعلن هذه القراءة السر العظيم لالام المسيح وطاعته وتضحيته .

٥ ـ التركيب الطقسي لهذه الأيام الثلاثة مازال من النوع الصيامي . فهي تتضمن اذاً صلاة افرام السرياني مع السجدات ، وزيادة في قراءة المزامير ، والقداس السابق تقديسه ، والترانيم الصيامية . اننا ما نزال في وقت الندامة ، الندامة التي وحدها تجعلنا مشاركين لفصح ربنا ، وتفتح لنا ابواب الوليمة الفصحية . وبعدها في يوم الاربعاء العظيم والمقدس ، في نهاية آخر قداس بروجزماني ، بعد ان نقلت القداسات من المذبح ، يقرأ الكاهن لاخر مرة صلاة افرام . تنتهي في هذه اللحظة فترة التهيئة اذ ان الرب يدعونا لعشائه الاخير .

٤ ـ الخميس : العشاء الاخير

يتميز قداس الخميس العظيم بحدثين : عشاء الرب الاخير مع تلاميذه وخيانة يهوذا. معنى الاثنين هو في المحبة. العشاء الاخير هو ذروة الكشف لمحبة الله الفادية الانسان، المحبة التي هي جوهر الخلاص الاساسي . وخيانة يهوذا تكشف ان الخطيئة ، الموت ، قتل الذات، هي ايضاً ناتجة عن المحبة، المحبة المنحرفة والمشوهة ، المحبة الموجهة نحو شيء لا يستحق المحبة . هنا يكمن سر هذا اليوم الفريد وطقوسه حيث يختلط بغرابة النور والظلام، الفرح والحزن ، يتحدونا بالاختيار الذي عليه يتوقف المصير الابدي لكل واحد منا .

« اما يسوع قبل عيد الفصح وهو عالم ان ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم الى الاب اذ كان قد احب خاصته الذين في العالم احبهم الى المنتهى.. » (يو ١٣ : ١) لنفهم معنى العشاء الاخير ، علينا ان نراه كالنهاية الاخيرة لتدبير المحبة الالهية العظيم الذي بدأ بخلق العالم وها هو الان يكتمل بموت المسيح وقيامته .

الله محبة (ايو ٤ : ٨). واول عطية المحبة كانت الحياة . والشركة كانت فحوى الحياة وجوهرها . ليحيا الانسان ، وجب عليه ان يأكل ويشرب ويشارك العالم ، وهكذا كان العالم المحبة الالهية التي صارت طعاماً وجسداً للانسان، ولما كان الانسان حياً اي مشاركا للعالم، وجب عليه ان يكون في شركة مع الله، ان يكون الله معنى حياته وجوهرها ونهايتها . فالشركة مع العالم ، عطية الله ، هي بالواقع شركة مع الله نفسه . لقد اخذ الانسان

طعامه من الله واذ يجعل منه جسده وحياته فهو يرفع العالم كله لله محولا إياه لحياة في الله ومعه . محبة الله اعطت حياة للانسان ومحبة الانسان لله حولت هذه الحياة الى شركة مع الله . هذا كان في الجنـــة . كانت الحياة فيها تسبحة شكر (افخارستيا) . **الخليقة كلها تقدمت بالانسان وبمحبته لله وتحولت الى سر واحد شامل للحضور الالهي وكان الانسان كاهن هذا السر .**

ولكن ، بالخطيئة اضاع الانسان هذه الحيـاة الشكرية (افخارستيا). اضاعها لانه توقف عن رؤية العالم كواسطة للشركة مع الله وعن رؤية حياته كافخارستيا وعبادة وشكر . لقد احب نفسه واحب العـالم من اجل ذاتهما ، وجعل نفسه جوهر حياتـه ونهايتها. لقد ظن ان جوعه وعطشه اي اعتماد حياته على العالم - يمكنهما ان يشبعا من العالم وبالطعام بحد ذاتهما . ولكن عندما نُفرغ العالم والطعام من معناهما السري الاصيل كواسطة للشركة مع الله، عندما لا نقبلهما من اجل الله ولا نملؤهما بالجوع والعطش لله ، وبكلمة اخرى عندما لا يكون الله بُعدَ محتواهما الحقيقي ، فلا يمكنهما ان يعطيا اية حياة او يشبعا اي جوع لانهما لا يملكان حياة في ذاتهما... وهكذا عندما يحبهما الانسان ينحرف حبه عن الغايـــة الوحيدة التي هي موضوع كل حب وكل جوع وكل رغبة . مات الانسان لان الموت « تفكك » لا مفر منــــه للحياة المقطوعة عن منبعها الوحيد ومحتواها الوحيد . لقد ظن الانسان انه يجد حياة في العالم وفي الطعام ولكنه وجـد الموت واصبحت حياته شركة مع الموت لانه بدل ان يحول العالم بالايمان

والمحبة والعبادة الى شركة مع الله ، اخضع ذاته بكليتها للعــالم وبدل ان يكون كاهن العـــالم ، اصبح عبدا له . بخطيئة العالم اصبح العـــالم كله مقبرة يشارك فيهـــا المحكومون بالموت، الموت .

« وجلسوا في كورة الموت وظلاله » (متى ٤ : ١٦)

ولكن ان خان الانسان فقد بقي الله أميناً للانسان ولم « يرفض جبلته التي صنعها رفضاً نهائياً ولم ينس عمل يديه ، بل افتقده بأساليب كثيرة بأحشاء رحمته » (قداس باسيليوس) . لقد ابتدأ عمل الهـــي جديد وهو عمل الفداء والخلاص الذى تم في المسيح ابن الله الذي اخذ طبيعتنا بجوعها وعطشها ورغبتها للمحبة والحياة ليعيد الانسان الى جماله الاصلي ويعيد الحياة كشركة مع الله. في المسيح انكشفت الحياة واعطيت وقبلت وتمت كافخارستيا كاملة وكلية، كشركة مع الله ايضاً كاملة وكلية. لقد رفض المسيح التجربة الانسانية الاساسية : ان يحيا « بالخبز وحده » وكشف ان ملكوت الله هو طعام الانسان الحقيقي وحياته الحقيقية . وهذه الحياة الشكرية الكاملة ، المملوءة بالله ، اي الهية وخالدة ، اعطاها المسيح لكل الذين يؤمنون به اي الذين وجدوا فيه معنى حياتهم وجوهرها . هذا هو المعنى الرائع للعشاء الاخير . انه اعطى ذاته كطعام حقيقي للانسان لان الحياة التي ظهرت فيه هي الحيـــاة الحقيقية . وهكذا يأتي تدبير المحبة الالهية الذي ابتدأ في الفردوس بالكلمة الالهية « خذوا ، كلوا... (لان الطعام هو حياة الانسان) الى « النهاية » بالكلمة الالهية « خذوا كلوا هذا هو جسدي ... » (لان الله هو حياة الانسان ...) . العشاء الاخير هو اعادة فردوس النعيم واعادة الحياة كشركة واتحاد .

ولكن ساعة ذروة المحبة هذه هي ايضاً ساعة ذروة الخيانة . يهوذا

يترك نور العلية ويذهب الى الظلمة . « وكان ليل » (و ١٣ : ٣٠)
لماذا يترك ؟ يجيب الانجيل لانه يحب ذاك الحب المشؤوم الذي تشدد
عليه مراراً ترانيم الخميس العظيم. لا فرق بالواقع ان احب « الفضة ».
المال هنا يرمز الى كل حب منحرف ومشوه يقود الانسان الى خيانة
الله. انه بالواقع الحب المسروق من الله ويهوذا اذا هو السارق .
عندما لا يحب الأنسان الله وبالله ـ يبقى يحب ويرغب لانه خاق ليحب
والحب هو طبيعته. ولكنه الحب عند ذاك شهوة هدامة ومظلمة نهايتها الموت.
وفي كل سنة عندما نغطس انفسنا في عمق نور الخميس العظيم الذي
لا يسبر يتوجة الى كل واحد منا السؤال الحاسم نفسه : هل اجيب محبة
المسيح واقبلها كحياة لي او اتبع يهوذا الى ليله المظلم ؟

يحتوي قداس الخميس العظيم على

١ - سحريــــة
٢ - غروب وبعدها قداس باسيليوس

هناك عادة في الكاتدرائيات ان تقام خدمة غسل الارجل بعـــد
الليتورجيا .

فبينما يقرأ الشماس الانجيل (الانجيل الذي يروي الغسل) يغسل
الاسقف ارجل اثني‌عشر كاهناً مذكراً ايانا بمحبة المسيح التي هي اساس
الحياة في الكنيسة والتي تطبع كل العلاقات فيهـــا . وفي يوم الخيمس
العظيم ايضاً يُحضَّر رؤوساء الكنائس المستقلة الميرون المقدس . وهـذا

يعني ايضاً ان محبة المسيح الجديدة هي الهبة التي نأخذها من الروح القدس يوم دخولنا الى الكنيسة (المعمودية).

في السحرية يظهر موضوع اليوم في الطروبارية : التضاد بين محبة المسيح ورغبة يهوذا النهمة .

عندما كان التلاميذ المجيدون في غسل العشاء مستنيرين . حينئذ يهوذا الردي العبادة مرض بمحبة الفضه واظلم . وللقضاة العادمي الناموس دفعك ايها الحاكم العادل وسلم . فيا عاشق الاموال انظر الى الذي من اجلها مارس الشنق . واهرب من النفس الفاقدة الشبع التي تجاسرت بمثل هـذا على المعلم . فيا من صلاحه شامل الكل . يا رب المجد لك .

بعد قراءة الانجيل (لو ١٢ : ١ - ٤) نتأمل معنى العشاء الاخير السري والابدي في قانون القديس قوزما الجميل . ويدعونا « ارمس » القانون الاخير (الاودية التاسعة) الى المشاركة بوليمة الرب :

« هلموا ايها المؤمنون . لنتمتع بوليمة سيدية ومائدة غير مائتـه . في مكان عليّ متلقفين بعقول سامية ، اقوالاً فائقة من الكلمة الذي اياه نعظم »

في الغروب، تشدد الاستيشارات التي تقرأ على « يارب اليك صرخت » على ضد - الذروة الروحي للخميس العظيم اعني بـه خيانة يهوذا :

ان يهوذا العبد الغاش . التلميذ المغتال . الصديق المحتـال . قد استبان من افعاله . لانه كان يتبع المعلم ويضمر بذاته التسليم ...

ثم نقرأ بعد الايصودن ثلاث قراءات من العهد القـديم :

١ - خروج ١٩ : ١٠-١٩ . نزول الله من جبل سيناء الى شـعبه كصورة لمجيء المسيح في الافخارستيا (القداس الالهي)

٢ - ايوب ٣٨ : ١-٢٣و٤٢ : ١-٥ ، محاورة الله مـع ايوب وجواب هذا الاخير. «اني قد نطقت بما لا ادرك بمعجزات

تفوقني ولا اعلمها». هذه المعجزات العظيمة قد تمت باعطاء المسيح لنا جسده ودمه .

٣ - أشعيا ٥ : ٤ - ١١، بداية النبوات عن عبدالله المتألم .

الرسالة هي من ١ كورنثوس ١١ : ٢٣ - ٣٢ وتعطي وصف بولس للعشاء الاخير ومعنى المناولة .

الانجيل ، مأخوذ من الاناجيل الاربعة ، وهو القصة الكاملة للعشاء الاخير وخيانة يهوذا والقبض على يسوع في البستان . انه اطول اناجيل السنة .

ونرتل بدل الشيروبيكون والكينونيكون ترنيمة المناولة .

« اقبلني اليوم شريكاً لعشائك السري يا ابن الله . لاني لست اقول سرك لاعدائك . ولا اعطيك قبلة غاشة مثل يهوذا . لكن كاللص اعترف لك هاتفاً . اذكرني يا رب في ملكوتك » .

٥ ـ الجمعة : الصليب

من نور الخميس العظيم ندخل الى ظلمة الجمعة ، يوم آلام المسيح وموته ودفنه. سمي هذا اليوم في الكنيسة الاولى بـ « فصح الصليب » لانه هو بالواقع بداية الفصح او العبور الذي سيتضح معناه لنا تدريجياً : اولاً في روعة صمت السبت العظيم والمبارك وثانياً في فرح يوم القيامة .

الظلمة : ليتنا ندرك ان الجمعة العظيم ليس فقط مجرد رمز

للظلمة وتذكراً لها . غالباً ما ننظر الى حزن هذه الخدم الجميل والمهيب بروح القداسة الذاتية والتبرير الذاتي . لألفي سنة مضت قتل اناس شريرون المسيح ، اما اليوم فنحن مسيحيون طيبون نقيم نعوشاً فخمة في كنائسنا - اليس هذا دلالة على طيبتنا ؟ ومع ذلك الجمعة العظيم لا يبحث في امور ماضية . انه يوم الخطيئة ، يوم الشر ، اليوم الذي فيه تسألنا الكنيسة ان ندرك رهبة الخطيئة والشر وقوتهما في « هذا العالم » . لانهما لم يختفيا بعد ولكنهما مازالا يشكلان القاعدة الاساسية للعالم ولحياتنا . ونحن الذين نسمي انفسنا مسيحيين، ألا نجعل غالباً منطقنا كمنطق الشر الذي قاد المجمع اليهودي ، وبيلاطس البنطي والجنود الرومانيين والحشود الى كره المسيح وتعذيبه وقتله ؟ في اي جانب والى اي جهة نقف لو كنا عائشين في اورشليم ايام بيلاطس ؟ هذا هو السؤال الذي يتوجه الينا في كل كلمة من خدم الجمعة العظيم . انه بالحقيقة يوم هذا العالم ، يوم دينونته الحقيقة لا الرمزية ويوم دينونة لحياتنا حقيقية لا طقسية... انه كشف لطبيعة العالم الحقيقية ، العالم الذي فضّل آنذاك وما زال يفضل الظلمة على النور ، الشر على الخير والموت على الحياة. «ان هذا العالم» الذي أدان المسيح للموت أدان نفسه للموت. ونحن بقدر ما نقبل روحه ، وخطيئته وخيانته لله بقدر ما نكون مدانين. هذا هو المعنى الواقعي الرهيب ليوم الجمعة العظيم : دينونة الموت...

ولكن يوم الشر هذا بذروة ظهوره ونصره هو ايضاً يوم الفداء ، لان موت المسيح قد ظهر موتاً خلاصياً لنا ولخلاصنا .

انه موت خلاصي لانه موت التضحية المطلقة ، الكلية والكاملة. المسيح يعطي موته لابيه ويعطيه ايضاً لنا. لابيه، لانه كما سنرى -- لا طريق آخر لتحطيم الموت ، لتخليص الانسان

منه وانها ارادة الآب ان يخلص الانسان من الموت . ولنا ، لانه بالحقيقة مات المسيح بدلاً منا . الموت هو ثمرة الخطيئة الطبيعية، دينونة متأصلة فيه . لقد اختار الانسان ان يبتعد عن الله دون ان يملك حياة في ذاته فمات . ومع ذلك فلا خطيئة بالمسيح ، اذاً لا موت فيه . ولكنه قبل ان يموت محبة بنا فقط. اراد ان يأخذ وضعنا البشري ويشارك فيه النهاية . قَبِل عقاب طبيعتنا وحَمَلَ اثقال الحالة البشرية . مات لانه وجد نفسه حقيقة معنا واخذ على نفسه مأساة حياة الانسان . ان موته هو ذروة الكشف لرحمته ومحبته . ولان موته هو محبة ، رحمة وتألم معنا ، فطبيعة الموت نفسها قد تغيرت . كان دينونة فأصبح عملاً مشعاً بالمحبة والغفران ونهاية لكل ابتعاد وعزلة . لقد تحولت الدينونة الى غفران ...

وبالنهاية موت المسيح موت خلاصي لانه يحطم نبع الموت نفسه : الشر . ان المسيح باقتباله الموت بمحبة ، وباسلامه نفسه لقاتليه وتسامحه بظفرهم الظاهري يكشف بالحقيقة ان هذا النصر هو اندحار الشر الحاسم والنهائي. لينتصر الشر،عليه ان يعدم الخير وان يبرهن ذاته انه الحقيقة المطلقة للحياة ويخزي الخير وبكلمه واحدة ان يظهر تفوقه . ولكن خلال الالام كلها، المسيح وحده هو المنتصر. الشر لا يستطيع ان يعمل اي شيء ضده لانه عاجز. ان يسوع المسيح يقبل الشر كحقيقة. لقد ظهرت المرآة كمرآت والقتل كقتل والخوف كخوف ، وكلما تقدم المسيح صامتاً من صليبه ومن النهاية كلما اقتربت المأساة الانسانية من ذروتها . وينجلي اكثر فاكثر انتصاره ومجده وغلبته على الشرير .

وفي كل مرحلة نجد ان هذا النصر يُعلن ويُعترف به ، يعترف به كل من زوجة بيلاطس ، ويوسف ، واللص المصلوب ، وقائد

المثة . عندما يموت المسيح على الصليب قابلاً ذروة رهبة الموت : عـزلة مطلقة (الهي ، الهي لماذا تركتني ؟ !) لا شيء يبقى الا الاعتراف «انه بالحقيقة كان ابن الله ...» وهكذا فان هذا الموت، هذا الحب ، هذه الطاعة ، هذا الفيض من الحياة ، هي التي تحطم من جعل الموت المصير العام. « وتفتحت القبور ...» (مت٢٧:٥٢). منذ الآن تظهر شعاعات القيامة .

هذا هو السر المزدوج للجمعة العظيم .السر الذي تظهره خدم الجمعة ايضاً وتجعلنا نشترك فيه: فمن جهة ، هناك التشديد الدائم على آلام االمسيح كخطيئة الخطايا وجريمة الجرائم. فأناجيل الآلام الاثنا عشر التي نقرؤها في السحرية تجعلنا نتبع المسيح المتـــألم خطوة خطوة. وفي الساعات (التي تأخذ محل القداس الالهى :لان الامتناع عن اقامة اللتيورجيا في هذا اليوم يعني ان سر حضور المسيح لا يخص « هـــذا العالم » ، عـــالم الخطيئة والظلمـــة ، بل هو سر « العـــالم الآتي ») واخيراً في خدمة جناز المسيح ، القراءات والترانيم مملوءة بالاتهامات الهائلة لأولئك الذين بحريتهم واختيارهم قرروا قتل المسيح مبررين هذ القتل بسبب ديانتهم وولائهم السياسي واعتباراتهم العملية وطاعتهم المهنية .

ولكن من جهة ثانية ، ذبيحة الحب التي تهيء النصر الاخـــير هي حاضرة ايضاً منذ البداية . فمن قراءة اول انجيل (يوحنا ١٣ : ٣١) التي تبدأ باعلان المسيح الجليل « الان يتمجد ابن الانسان وقد تمجد الله فيه » الى الاستيشارة في آخر الغروب ــ هناك ازدياد النـــور والنمو البطيء للرجاء واليقين ان « الموت سيحطم الموت »!

اذ راتك يا منقذ الكل . في قبر جديد الجحيم المهزوء جداً بها . موضوعاً من اجل الكل ارتاعت خائفة . واقفالها والابواب حطمت تحطيما . والقبور فتحت والموتى نهضوا . والفرحان آدم اذ ذاك . يامحب البشر ناداك شاكراً الجد لتنازلك.

ولما نضع في نهاية الخدمة ، صورة المسيح في القبر ، في وسط الكنيسة ، لما ينتهي هــذا اليوم الطويل ، نعرف اننا في نهـــاية التاريخ الطويل للخلاص والفداء ، ويأتي مع اليوم السابع ، يوم الراحة ، السبت المبارك ، ظهور القبر المحيي ...

٦ _ هــــذا هو السبت المبـــارك

ان «السبت العظيم والمقدس» هو اليوم الذي يربط الجمعةالعظيم، ذكرى الصليب، بيوم القيامة . وبالنسبة لكثيرين، جوهر هذا « الربط » الحقيقي ومعناه ، والضرورة نفسها لهذا « اليوم الوسط » تبقى غامضة . لانه بالنسبة لاغلبية المترددين الى الكنيسة « اهم » ايام اسبوع الالام هي الجمعة والاحد ، الصليب والقيامة . على كل حال يبقى هــذان اليومان بطريقة ما « منقطعين » . هناك يـوم حزن ومن ثم يوم فـرح . وفي هذا التعاقب ، الحزن يستبدل بسذاجة بالفرح. . ولكن حسب تعليم الكنيسة المعبر عنه في تقليدها الطقسي،جوهر هذا التعاقب ليس بسذاجة الاستبدال . الكنيسة تعلن ان المسيح « حطم الموت بالموت » وهي تعني انه حتى قبل القيامة يقوم حدث لا يستبدل فيه الحزن بالفرح وحسب ولكن الحزن نفسه **يتحول** الى فرح . السبت العظيم هو بالضبط يوم **التحويل** هذا ، اليوم الذي فيه ينمو النصر من داخل الهزيمة . والذي فيه نُعطى ، حتى قبل القيامة ، ان نتأمل موت الموت نفسه. . كل هـذا مُعبر عنه، لا بل يقوم حقيقة كل سنة ، في تلك السحرية الرائعة في ذلك التذكار الطقسي الذي يصير لنا حضوراً محولا ومخلصاً .

عندما ناتي الى الكنيسة في صباح السبت المقدس يكون يوم الجمعة قد اكتمل طقسياً. اذاحزن الجمعة هو الموضوع الاولي ، نقطة الانطلاق لسحرية السبت . انهـــا تبدأ كجنازة ونحيب على ميت - ، وبعد ترنيم

طروبارية الجناز ، وتبخير بطيء للكنيسة، يقترب الكاهن من الايبطافيون (ايقونة الدفن) . اننا الان نقف عند قبر سيدنا متأملين موته وانهزامه. عندما نرنم المزمور ١١٨ ولكل آية نضيف « تسبحة » تعبر عن رهبة الانسانية والخليقة كلها امام موت يسوع ؟ :

ومع ذلك منذ البداية ، بجانب موضوع الحزن والنحيب الاولي ، يبدأ موضوعٌ آخر ظهوره ويصبح فيما بعد اكثر ظهوراً . هذا الموضوع الجديد نجده في المزمور ١١٨ « تبارك الذين لا يعثرون في الطريق الذين يسلكون في فرائض الرب » . اننا نستعمل هذا المزمور في طقوسنا فقط في خدم الجنازة ومن هنا جاء طابعه « الجنائزي » بالنسبة للمؤمن العادي . ولكن كان هذا المزمور في التقليد الطقسي القديم جزءاً اساسيا من سهرانة الاحد (سحرية + غروب) ، التذكار الأسبوعي لقيامة المسيح . ان محتواه ليس جنائزياً البتة وهو انقى واكمل تعبير عن المحبة لشرائع الرب اي التصميم الالهي للانسان وحياته . حياة الانسان الحقيقية التي اضاعها بالخطيئة ، هي الحياة مع الله ، وفي الله ، ولله ، الحياة التى من اجلها خلق الانسان ،

بطريقة شهادتك سررت كالحاصل على كل ثروة . . . (مز ١١٨ : اية ١٤) باحكامك اتلذذ (مز ١١٨ : اية ١٦) .

وبما ان المسيح هو صورة لكمال اتمام هذه الشريعة وبما ان « جوهر » حياته لم يكن الا اتمام ارادة الرب ، فالكنيسة تفسر هذا المزمور ككلام المسيح نفسه الموجه الى ابيه من القبر . (مز ١١٨ : اية : ١٥٩) : « انظر كيف احببت اوامرك . احيني يا رب بحسب رحمتك » .

ان موت المسيح هو البرهان الاكبر لمحبته لارادة الله وطاعته لابيه . انه عمل طاعة محض ، عمل ثقة كاملة بارادة الآب .

وبالنسبة للكنيسة هذه الطاعة الى النهاية ، هذا التواضع الكامل الذي ابداه الابن ، هو الذي يشكل اساس نصره وبدايته. الاب يرغب هذا الموت والابن يقتبله مظهراً ايماناً غير مشروط في ارادة الاب الكاملة وفي ضرورة تضحية الابن هــذه بواسطة الآب . المزمور ١١٨ هو مزمور الطاعة وبالتالي الاعلان ان النصر انما يبدأ بالطاعة .

ولكن لماذا يرغب الاب هذا الموت لماذا هو ضروري؟ ان الجواب على هذين السؤالين يشكل الموضوع الثالث لخدمتنا ويظهر اولاً في « التسبيحات » التي تلي كل آية من المزمور ١١٨ . انها تصف موت المسيح كنزول الى الجحيم . « الجحيم » باللغة الكتابية الاصلية تعني عالم الموت اي حالة ظلمة ويأس وفناء . وبما انها عالم الموت الذي لم يخلقه الله ولم يرده ، فهي تعني ايضاً ان رئيس هذا العالم عظيم القوة فيه. الشيطان ، الخطيئة ، الموت - هذه هي « ابعاد » الجحيم وجوهره . لان الخطيئة تأتي من الشيطان والموت هـو نتيجة الخطيئة ـ «الخطيئة دخلت الى العالم. والموت دخل بالخطيئة» (روميه ٥ : ١٢). الموت ملك منذ آدم الى موسى »(رو٥:١٤) والكون كله اصبح مقبرة كونية وأُدين الى اليأس والفناء . لهـذا السبب،الموت هو « آخر عـــدو » (اكو ١٥ : ٢٠) وذروة التجسد غايتها ان تحطمه . هذه المجابهة مع الموت هي « ساعة » المسيح التي قال عنها « لاجل هذه الساعة اتيت » (يو ١٢ : ٢٧) . والان قد اتت هذه الساعة وابن الله يدخل الى الموت . يصف الاباء عادة هذه اللحظة كالنزال بين المسيح والموت ، بين المسيح والشيطان . هذا الموت اما ان يكون النصر الاخير للشيطان او انهزامه النهائي . ويتطور النزال في عدة مراحل . في البدء نجد ان قوى الشر تنتصر . فالصديق مصلوب ويتركه الجميع ويحتمل الموت اللعين ويصبح ايضاً مشاركاً في الجحيم

مكان اليأس والظلمة... ولكن في هذه اللحظة بالذات يظهر المعنى الحقيقي لهذا الموت. الذي يموت على الصليب له الحياه في ذاته اي له الحياة ليس كهبة من الخارج، كعطية يمكن ان تؤخذ منه، ولكنها ملكه كجوهره. لانه هو الحياة ونبع الحياة. « فيه كانت الحياة والحياة نور الناس ». الانسان يسوع يموت، ولكن هذا الانسان هو ابن الله. كانسان يمكن ان يموت حقاً ولكن فيه يدخل الله نفسه عالم الموت ويشارك الموت، هذا هو المعنى الفريد الذي لامثيل له لموت المسيح. **الانسان الذي يموت فيه** هو الله او بعبارة اخرى ادق الاله - الانسان. الله هو القدوس الازلي وَفقط في وحدة الله والانسان «بدون اختلاط اوتغيير او انقسام او انفصال» في المسيح يستطيع الله ان يحمل الموت البشري ويتغلب عليه ويحطمه من الداخل « ويدوسه بالموت ».

الان نفهم لماذا رغب الله ذلك الموت ولماذا اسلم الآب ابنه الوحيد له. انه يرغب في خلاص الانسان اي ان تحطيم الموت لن يكون عملَ قوته (اتظن اني لا استطيع ان اسأل ابي فيقيم لي في الحال اكثر من اثنتي عشرة جوقة من الملائكة) ؟ (مت ٢٦ : ٥٣)، عملَ عنف ولو كان مخلصاً بل عمل بمحبة وحرية وتكريس حر لله الذي من اجله خلق الانسان. لان اي خلاص آخر سيتناقض مع طبيعة الانسان وبالتالي ليس خلاصاً حقيقياً ولذا كانت ضرورة التجسد وضرورة الموت الالهي. في المسيح يستعيد الانسان طاعته ومحبته. وفيه يغلب الانسان الخطيئة والشر. كان ضرورياً الا يتحطم الموت بالله وحسب ولكن ان يغلب ويداس بالطبيعة الانسانية نفسها، بالانسان وخلاله « لانه بما ان الموت بانسان فبانسان ايضاً قيامة الاموات » (اكو ١٥ : ٢١).

قبل المسيح الموت بحريته وقد قال ان حياته «لا احد يأخذها منه ولكنه يبذلها باختياره » (يو ١٠ : ١٨). ولكنه لايبذلها

بدون عراك « وطفق يحزن ويكتئب » (مت ٢٦ : ٣٧ » . هنا يتم مقياس طاعته واذاً هنا يمكن تحطيم اصل الموت **الاخلاقي** ، الموت كفدية للخطيئة . حياة المسيح كلها هي في الله كما يجب ان تكون حياة كل انسان ، هي تلك الحياة الكاملة ، المملوءة معنى مملوءة من الله والتي تغلب الموت وتحطم قوته . لان الموت هو فوق كل شيء نقص حياة، هدم حياة قطعت نفسها عن منبعها الوحيد. وبما ان موت المسيح هو حركة حب متجهه نحو الله ، عمل طاعة وثقة وايمان وكمال فهو **عمل حياة**)«ايها الآب بين يديك استودع روحي». لو ٢٣ : ٢٦ » يحطم الموت. انه موت الموت نفسه . . .

هـذا هو معنى نزول المسيح الى الجحيم ومعنى موته الذي صار نصراً . ونور هذا النصر ينير الان صلواتنا امام القبر .

لئن مت يا رب	وسكنت قبراً
الا انك حللت سلطان الموت	منهضاً من الجحيم المائتين
في قبر وضعت	·يا يسوع الحياة
لكنك ضمحلت الموت بموتك	وانبعت الحياة للعالمين
يا لها من لذة	يا له من فرح
بهما غمرت من كانوا في الجحيم	اذ ضئت في اقصى ظلماتها

الحياة تدخل مملكة الموت . والنور الالهي يشع في ظلامه المخيف، يشع الى الذين هناك ، لان المسيح هو حياة الكل والنبع الوحيد لكل حياة . لذلك هو يموت ايضاً من اجل الكل لان كل ما يحدث لحياته - يحدث ايضاً للحياة نفسها... هذا النزول الى الجحيم هو لمجابهة **حياة الكل** لموت الكل

للارض انحدرت	لتنجي آدما
ولما لم تجده فيها يا سيد	نزلت الى الجحيم تطلبه

الحزن والفرح يتصارعان ، وهاهو الفرح على وشك ان يربح . لقد انتهت «التسبيحات» وكذلك انتهى الصراع بين الحياة والموت

ولاول مرة تطن ترنيمة النصر والفرح . انها تدوي في الطروبارية على مزمور ١١٨ التي نرنمها في سحرية كل احد ، عند اقتراب يوم القيامـــة :

« جمع الملائكة انذهل متحيراً عند مشاهدته اياك محسوباً بين الاموات ايهـــا المخلص. داحضاً قوة المـوت ومنهضاً آدم معـك ومعتقاً ايانا من الجحيم كافة...»

« ان الملاك اللامع عند القبر ، تفوه نحو حاملات الطيب قائلاً : لما تمزجن الطيوب بالدموع بـترث يا تلميذات ؟ انظرن المحو وافرحن لان المخلص قد قام من القـــبر... »

يأتي بعدها قانون السبت العظيم الجميل الذي نجد فيه مرة اخرى موضوعات هذه الخدمة كلها – من الجنازة الى الغلبة على الموت– تتكرر وتتعمق . وينتهي القانون هكذا :

« ليفرح كل الـبرايا . والذين في الارض . اذ الجحيم والعدو سُبيا معـــاً . ولتستقبلني بالطيوب النسوة . لاني سأنجي آدم وحوا ونسلهما وانهض في اليـوم الثـــالث . »

« وفي اليوم الثالث يقوم ايضاً ». من الان وصاعداً يضيء في الخدمة فرح القيامة . اننا ما نزال واقفين امام القبر ولكنه قد ظهر قبراً محييا . الحياة ترتاح فيه . خليقة جديدة تولد . ومـرة ثانية في اليوم السابع ، يوم الراحة -- يرتاح الخالق من كل اعماله. «الحياة ينام والجحيم يرتجف– ونحن نتأمل السبت المبارك، الصمت المهيب، صمت ذلك الذي يعيد الحياة لنا : « هلموا نشاهد حياتنا مرتاحاً في القبر...». الان يظهر لنا المعنى الكامل والعمق الروحي لليوم السابع كيوم اتمام ، كيوم انجاز لان

« موسى العظيم قد سبق فرسم هذا اليوم سرياً بقوله : هذا هو السبت المبارك، هذا هو يوم الراحة الذي فيه استراح ابن الله الوحيد من كل اعماله...»

والان ندور حول الكنيسة بطواف جليل حاملين الابيطافيون. ولكنه ليس طوافاً جنائزياً : انه ابن الله، القدوس الذي لا يموت

الذي يمر خلال ظلمة الجحيم معلناً ل « آدم كل جيل » فرح القيامة المقترب . « مشرقاً كالصباح من الليل »، يعلن ان « الموتى كلهم سيقومون وان كل الذين في الجحيم سيحيون وكل الخلائق ستبتهج...

ونعود إلى الكنيسة وقد عرفنا مسبقاً سر موت المسيح المحيي. الجحيم يتحطم والآن يظهر الموضوع الاخير - موضوع القيامة.

يتم السبت ، اليوم السابع ، ويُنجز تاريخ الخلاص . وعمله الاخير هو غلبة الموت . اما بعد السبت فيأتي اليوم الاول لخليقة جديدة ولحياة جديدة بزغت من القبر .

ان البركيمنن يدشن موضوع القيامة :

« قم يا رب اعنا وخلصنا لمجد اسمك يا الله . لقد سمعنا بآذاننا ...»

ويتتابع الموضوع في القراءة الاولى : نبوءة حزقيال عن العظام الجافة (اصحاح ٣٧) « ... فاذا هي كثيرة جداً على وجه البقعة واذاها يابسة جداً » . انه الموت منتصر في العالم ، انها الظلمة ، انها الخيبة لتلك الدينونة العالمية للموت . ولكن الله يكلم النبي . انه يعلن ان تلك الدينونة ليست مصير الانسان الاخير . العظام اليابسة ستسمع كلمة الرب . الموتى سيحيون ». هاءنذا افتح قبوركم واصعدكم من قبوركم يا شعبي وآتي بكم الى ارض اسرائيل »(حزقيال ٣٧: ١٢). وبعد هذه القراءة يعلن البروكيمنن الثاني الدعاء نفسه والصلاة نفسها .

« قم ايها الرب الحي ولترتفع يدك...»

كيف ستحدث هذه القيامة العامة وكيف هي ممكنة؟ تجيبنا على هذا القراءة الثانية (١ كورنثوس ٥: ٦ وغلاطية ٣ :١٣-١٤) «الخميرة الصغيرة تخمر العجين كله...» المسيح فصحنا هو خميرة

قيامة الكل. كما ان موته يحطم اساس الموت نفسه، كذلك قيامته هي عربون قيامة الكل لان حياته هي نبع كل حياة . وتؤكد آيات ال « هللويا »، الآيات التي تبدأ خدمة الفصح، هذا الجواب الاخير، ذاك اليقين ان زمن الخليقة الجديدة والنهار الذي لا يغرب قد بدأ :

« هللويا » . ليقم الله ويتبدد جميع اعدائه ويهرب مبغضوه من امام وجهه... هللويا! كما يباد الدخان يبادون وكما يذوب الشمع من امام وجه النار:

انتهت قراءة النبوءات ولم نسمع الا "ها. اننا الان ما نزال في السبت العظيم امام قبر المسيح . وعلينا ان نقضي هذا اليوم الطويل قبل ان نسمع عند منتصف الليل «المسيح قام» ، قبل ان ندخل الى الاحتفال بقيامته . هكذا تخبرنا القراءة الثالثة – متى ٢٧ : ٦٢ – ٦٦ التي تختم الخدمة ، مرة اخرى عن القبر . « الذي خفظ بختم الحجر واقامة الحراس » .

ولكن من الممكن هنا ، في نهاية السحرية ، ان يظهر المعنى العميق لهذا «اليوم الوسط». لقد قام المسيح ايضاً من بين الاموات وسنحتفل بقيامته في يوم الفصح . ولكن هذا الاحتفال، رغم انه يقيم تذكار حدث ماض ، يسهم مسبقاً في سر مقبل . انها قيامته هو وليست قيامتنا بعد . علينا نحن ان نموت . ان نقبل الموت ، الانفصال، الهدم . حقيقتنا في هذا العالم، في هذا (الدهر) هي حقيقة السبت العظيم الذي هو صورة حقيقية عن واقعنا الانساني. نحن نؤمن بالقيامة ، لان المسيح قام من بين الأموات. انا نترقب القيامة ، ونعرف ان موت المسيح اعدم قوة الموت وليس الموت بعد ، الخيبة ونهاية كل شيء. اذ قد اعتمدنا لموت المسيح فنحن نشارك مسبقاً بحياته التي بزغت من القبر . اننا نأخذ جسده ودمه اللذين هما خبز الابدية ، وعندنا في انفسنا علاقة الاشتراك مسبقاً في الحياة الابدية .. تقاس حياتنا

المسيحية كلها بأعمال الاتحاد في حياة (دهر الملكوت الجديد...) ومع ذلك فنحن مازلنا هنا والموت هو نصيبنا الذي لا مفر منه،

ولكن هذه الحياة بين قيامة المسيح ويوم القيامة العامة، أليست هي بالضبط حياة السبت العظيم ؟ اليس التوقع هو الاساس والجوهر لكل خبرة مسيحية ؟ اننا ننتظر بمحبة ورجاء وايمـــان . وهذا الانتظار ا « قيامة العالم الآتي وحياته » ، هذه الحياة « المستترة مع المسيح في الله » (كولوسي ٣ : ٣ - ٤) ، هذا الترقب النامي بمحبة ويقين ، هذه كلها هي « سبتنا العظيم » . شيئاً فشيئاً يصبح كل شيء في هذا العالم شفافاً للنور الذي يأتي من هناك، ان «هيئة هذا العالم» ستتغير وهذه الحياة التي لا تفنى مع المسيح تصبح هدفنا الاول والاخير.

ننتظر كل سنة في السبت العظيم ، بعد هذه السحرية ، ليل الفصح وكمال الفرح الفصحي. اننا نعرف انهما يقتربان - ومع ذلك كم هو بطيء ذاك الاقتراب ، وكم هو طويل هذا اليوم ! ولكن أليس صمت السبت الرائع رمزا لحياتنا بالذات في هذا العالم ؟ السنا نحن دائماً في هذا (اليوم الوسط) منتظرين فصح المسيح ، مهيئين انفسنا ليوم ملكه الذي لا يغرب ؟

توزيع

مكتبـــة الســـــائح
طرابلس - لبنان
شارع الراهبات
هاتف: ٦٢٥٧٥١ - ٦٢١٥٤٩ - ٦٢٧٠١٧

مطرانية طرابلس والكورة
وتوابعها للروم الأرثوذكس